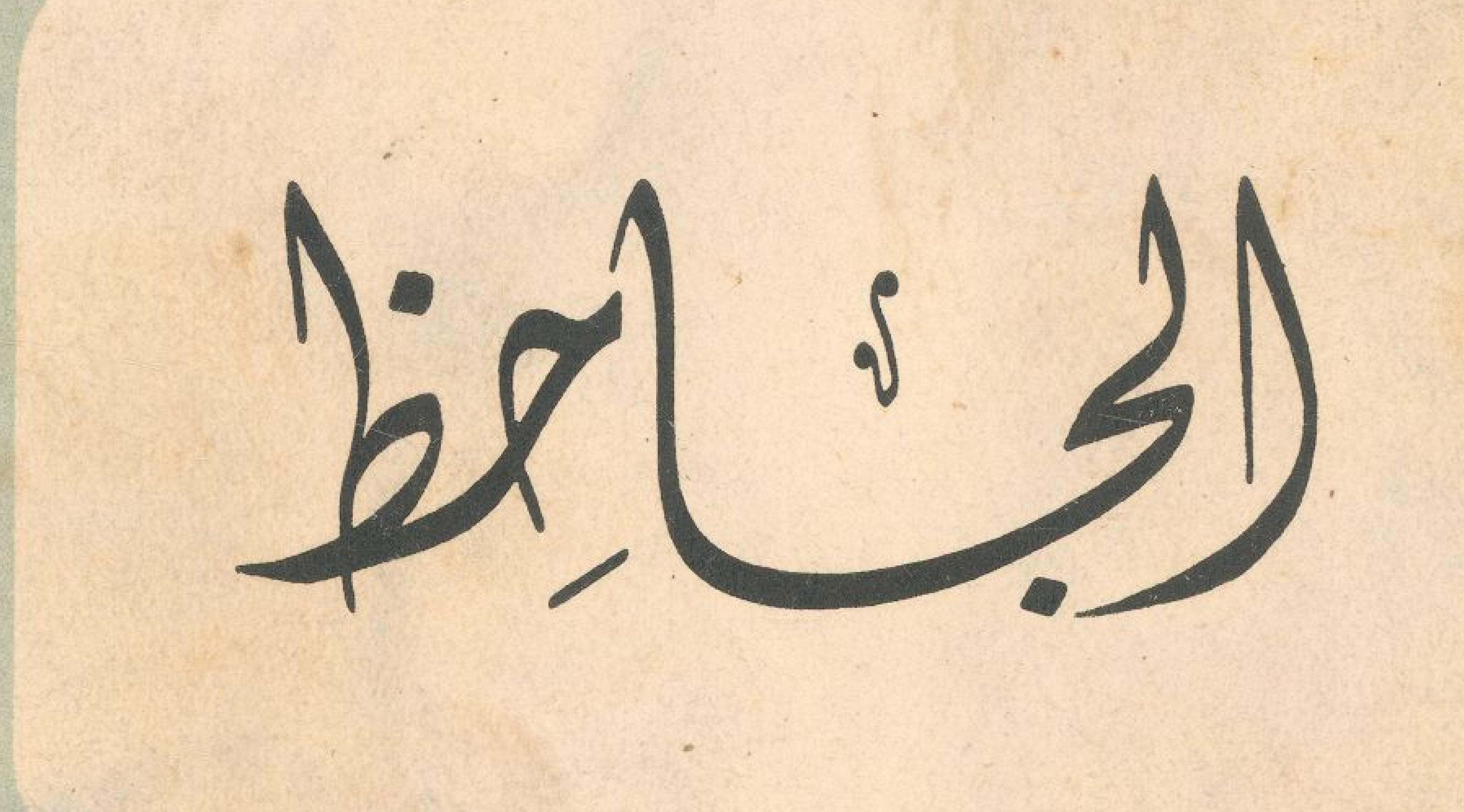
نوابغ الفكر العربي

٢



بقلم حنّا الفاخوري



دار المعارف بمصر

الجاحظ

نوابغ الفكر العربي

٢

الجاحظ

بقلم حنا الفاخوري

الجاحظ علم من أعلام الفكر العربى ، وركن من أركان الأدب ، بل هو الإمام الأعلى فى الكتابة والبلاغة جمع فأوعى ثم كتب وإذا كتبه خزانة اجتمعت فيها ثقافة العرب والأعاجم ، وموسوعة علمية أدبية كان لها الأثر الكبير فى تيارات العلم والأدب على مر العصور .



دار المعارف بمصر

الفصل الأول

عصر الجاحظ

١ – البيئة السياسية

تقوضت أركان الدولة الأموية فى الشام ، بعد أن اشتعلت نيران الثورة العباسية فى العراق وخراسان ، يضرمها أبو مسلم الخراسانى وقائده قحطبة بن شبيب الطائى[١] ، ومشى العباسيون يرفعون الراية السوداء من مكان إلى مكان والنصر حليفهم ، وإذا أبو العباس فى مسجد الكوفة ينادى بنفسه خليفة ، وإذا الزاب الأعلى[٢] يشهد حطمة مروان الثانى الخليفة الأموى ، وإذا بلاد الشام كلها تضج بجيوش الثائرين ، وإذا أبو فطرس[٣] يشهد استئصال شأفة الأمويين ما عدا عبد الرحمن ، صقر قريش ، مؤسس الدولة الأموية الأندلسية .

اتخذ أبو العباس السفاح (٧٤٩ – ٧٥٤ م ١٣٢ – ١٣٦ هـ) الهاشمية قرب الأنبار قاعدة له ، ولما قام بعده أبو جعفر المنصور (٧٥٤ – ٧٧٥ م ١٣٦ – ١٥٨ هـ) وامتدت على يده حدود الإمبراطورية العباسية حتى بلغت كشمير فى الهند ، فكر فى عاصمة لمملكته تكون بعيدة عن الكوفة موطن الثورة والعصيان ، وقريبة من فارس ، تنفتح أبوابها على عوالم من الثقافات والمدنيات . فوقع اختياره على قرية مسيحية قائمة على ضفة دجلة الغربية اسمها بغداد . فأمر الخليفة أن تحول القرية إلى مدينة ، وأمر بالمهندسين والصنّاع

---

(١) هو أحد الدعاة الاثنى عشر الذين بثوا الدعوة سرا للعباسيين .

(٢) الزاب الأعلى : ميدان المعركة الفاصلة التى جرت فى بلاد الموصل بين مروان الثانى وقواده وبين العباسيين .

(٣) أبو فطرس : نهر بفلسطين ؛ كان مروان الثانى قد عرج به ، بعد هزيمته فى الموصل فى طريقه إلى مصر .

وأرباب العمل ، فإذا قصور الأكاسرة فى المدائن تُنقل حجارتها وأنقاضها لتقوم بها قصور بغداد ، وإذا المدينة الجديدة ترتفع على شكل مستدير فى وسطها قصر الخليفة المدعو باب الذهب أو القبة الخضراء ، وإذا المدينة فارسية فى مواد بنائها ، فارسية فى هندستها ، يصبح فيها قصر الخليفة قلباً تتجه إليه كل الآمال والأعمال ، وتحيط به الجلالة والوقار ، ويقوم بينه وبين الشعب جيش من الموظفين والحُجَّاب على أسلوب فارسى يبتعد عن الشعبية العربية والبساطة العربية . وارتفعت ، إلى جنب قصر الخليفة ، قصور فارسية للبرامكة وزراء الدولة ومستشاريها .

والعباسيون أول من اتخذ الوزراء عن الفرس ، وقد جعلوا فى يدهم مقاليد أمور الدولة ، وعوّلوا عليهم فى أكثر الأحوال ، وجعلوا الوزارة وزارتين : وزارة تفويض تخوّل صاحبها سلطان تدبير الأمور برأيه ، ووزارة تنفيذ ينفّذ صاحبها ما يراه الخليفة ، ويكون واسطة بين الخليفة والشعب يُمضى فيه أمر الخليفة من تقليد الولاة وتجهيز الجيوش وما إلى ذلك .

وهكذا حاكى العباسيون القياصرة والأكاسرة فى تنظيم دولتهم ، ومالوا إلى الترف والرخاء ، واعتمدوا على من يقوم مقامهم فى مباشرة الأعمال ، ففرّعوا المناصب ، وزادوا على الوزراء من يراقب تصرف العمال[1] فى الأمصار وقلّدوه ديوان البريد ، ومن يقوم بختم الرسائل وتسجيلها وقلّدوه ديوان التوقيع أو الخاتم ، ومن يتولى النظر فى ضياعهم وأملاكهم وقلدوه ديوان الضياع ، ومن ينظر فى حسابات حاشيتهم وخدامهم وقلدوه ديوان الخاص ، ومن ينصرف إلى ضرب النقود والقيام بالطراز وسلّموا إليه دار الضرب وديوان الطراز ، وأنشأوا ديوان العزيز وهو مجلس الخليفة يرأسه الوزير الأكبر ، وديوان الجيش فى مجلسين أحدهما للتقرير والآخر للمقابلة ، وديوان بيت المال للإشراف على الواردات والصادرات ، وديوان الجهبذة[2] ، للإشراف على مصالح أهل الذمة[3] ، إلى غير ذلك من الدواوين .

---

(١) العامل : الرئيس والوالى والحاكم .

(٢) الجهبذ بفتح الجيم والباء والجهبذ بكسر الجيم والباء لغة : هو الناقد العارف .

(٣) الذمة : الأمان والعهد . والذمى : الذى أعطى الذمة أى الأمان فأعطى الجزية .

أما العمال فكان العباسيون يقيمونهم على الأقاليم البعيدة كالشام ومصر وخراسان ، ومن أشهرهم جعفر بن يحيى البرمكي الذى ولاه الرشيد المغرب كله من الأنبار إلى إفريقية ، وأخوه الفضل بن يحيى الذى تولى الشرق كله من شروان إلى أقصى بلاد الترك .

ولم يقف العباسيون عند هذا الحد بل تجاوزوه شيئاً فشيئاً إلى إدخال الفرس والأتراك فى جندهم ، فكان فى الجيش فرقة خراسانية ، وكان فى الجيش أيضاً عدد كبير من الفراغنة أى الأتراك ، جمعهم المعتصم من أسواق بغداد لخوفه على نفسه من جنده ، فكانوا على الخلافة والدولة وبالا ، وقد عملوا على دك أركانها وعلى نشر الفوضى فى البلاد .

ولم تخلُ البلاد ، فى عهد بنى العباس ، من حروب وفتن. أما فى الداخل فقد نهضوا إلى قمع ثورات الراوندية[1] مؤلهى أبى مسلم الخراسانى ، والزنادقة فى العراق وفارس ، والعلويين مع ابن طباطبا ، والخُرَّمِيَّة[2] مع بابك ، وغيرهم من الذين قاموا فى وجه الأمن والسلام ؛ وأما فى الخارج فقد أكثر الخلفاء من الصوائف والشواتى ، وهى الحملات والغزوات فى الصيف والشتاء ؛ وقد اشتهر فى ذلك أبو جعفر والمهدى والمعتصم ، فحاولوا غزو الممالك الملاصقة ولا سيما بلاد الروم .

تلك خلاصة الحالة السياسية فى البلاد العربية فى عهد الجاحظ ، فقد قامت الدولة العباسية فى أول عهدها على القوة ، واستعانت بالفرس خاصة والشعوبية عامة ، وبالعرب المناهضين للدولة الأموية ممن يناصرون الهاشميين ،

---

(١) « الراوندية » : مذهب أتباع ابن الراوندى كان معتزلياً ثم أصبح من الروافض وله كتاب فى فضيحة المعتزلة وآخر فى الطعن على نبى المسلمين .

(٢) « الخرمية » : مذهب أتباع بابك الخرمى . و « خرمة » مدينة فى أذربيجان . ظهر بابك سنة ٢٠١ هـ وملك الجبل عشرين عاماً فى خلافة المعتصم إلى أن قبض عليه وقتل سنة ٢٢٣ هـ وكان يدعو إلى الإباحية. ويسمى حصنه « البذ » وفى ذلك يقول أبو تمام من قصيدة يمدح فيها أبا سعيد محمد بن يوسف الطائى :

رمى الله منه بابكاً وجيوشه ... بقاصمة الأصلاب فى كل مشهد
بأسمح من صوب الغمام سماحة ... وأشجع من صرف الزمان وأنجد
فتى يوم بذ الخرمية لم يكن ... بهيابة نكس ولا بمعرد

فشالت كفة العرب والعروبة ورجحت كفة الأعاجم ، واقتصر شأن العرب على أن يكونوا عنصراً من العناصر الكثيرة التى احتوتها الإمبراطورية ، وتغلغل الفرس فى صلب الدولة . ولما نقلت العاصمة إلى بغداد ، تحول وجه الدولة عن البحر المتوسط ، وتوجه شطر فارس ، وأدخل الفرس على العرب سياسة الحكم المطلق ، وجعلوا قصور الخلفاء فى بغداد أشبه بقصور الأكاسرة فى المدائن ، كما أدخلوا طرائق الفرس فى تنسيق الدواوين وأساليب الحرب ونُظُم الحكم . فتحولت الأنظار عن العرب وعاداتهم وتقاليدهم ، وانفتحت على الجديد والاستفادة منه ، ونشأت من ثم النزعة إلى التجديد ، وعلت المناداة بمذهب « التخيُّر » أى تخير أحسن ما فى الحضارات القديمة غير العربية ، وتوسيع الصدر لها والعمل بها .

٢ ــ البيئة الاجتماعية

تعدَّدت عناصر الدولة العباسية فى امتداد أطرافها من المغرب إلى مصر والشام وجزيرة العرب والعراق وفارس وما وراء النهر ، واشتد الاختلاف فى ميزات تلك العناصر وعاداتها ومناهج تفكيرها ، كما اشتد التمازج فيما بينها . فلم تعد البيئة الاجتماعية عربية تنزع نزعة العروبة الخالصة ، بل قويت فيها الشعوبية وحركة التحرر من الأخلاق العربية ، فجرَّ التمازج انحطاطاً فى الأخلاق .

وكانت اقتصاديات البلاد واسعة جداً مما فسح لها مجالا واسعاً فى الترف . أما أموال الدولة فكانت فى عهد ازدهار الخلافة تؤلف ثروة طائلة ، إلا أنها بعد المعتصم أصبحت بيد الأجناد الغرباء والوزراء والعمال يجمعونها بطرق شتى ويسيئون بذلك إلى الدولة والشعب . وأما أموال الرعية فقد توافرت فى المدن حيث عاش الناس فى رخاء وسعة ، بعد إذ اهتمت الدولة بالزراعة وشقت لها الأقنية للريّ ، وعززت الصناعة ولا سيما صناعة النسج ، واستخرجت المعادن من مناجم فارس .

وكان من الترف والفراغ أن شاع اللهو[1] فى البلاد ، ومال الناس إلى الغناء

(١) طالع المنتخبات ص ٦٨ – ٦٩ .

والرقص والتفنن فى الملبس، كما مالوا إلى لعب الشطرنج وسباق الخيل والصيد . والصيد أحب ضروب اللهو عند الخلفاء والأمراء ، ولذا أولع الناس بتربية البزاة وكلاب الصيد وما إلى ذلك .

وكان من الترف والفراغ أن شاع التسرّى ، وتعاطى الناس المسكرات سراً وعلناً[١] ، وعاقر الخمرة حتى بعض الخلفاء . وكانت تعقد لمعاقرة الخمرة والغناء حلقات أنس تُسمَّى مجالس الشراب .

وتوافر الطلب على العلماء والشعراء[٢] والمغنين وأرباب الموسيقى فاتخذهم الأمراء والأعيان ندماء لهم .

وانتشرت فى البلاد تجارة الرقيق ، وكان فى بغداد شارع يسمى « شارع دار الرقيق » . وكان الأرقّاء ، ولا سيما الجوارى ، أنواعاً مختلفة ، فهنالك السود من السودان وجنوبى الجزيرة العربية وشمالى إفريقية ، وهنالك البيض من أتراك وصقالبة وغيرهم . وقد شبه الجاحظ أصناف الرقيق عند النخّاسين[٣] بألوان الحمام ، فشبه الصقالبة بالحمام الأبيض ، وشبه الزنج بالحمام الأسود .

واشتهر من الأرقاء الغلمان يلبسون الحلل الجميلة ويتزينون ويتعطرون كالنساء ، والغُلاميات الحسان يقصصن شعورهن ويلبسن ثياب الغلمان ، وقد تغزل الشعراء بكلا الفريقين .

وقد عُنى العباسيون بتعليم الجوارى وتلقينهن الغناء[٤] فكُنّ من أشد العوامل فى نشر تلك الصناعة ، كما عملن على نشر الشعور بالجمال الفنى ، وعلى إشعار الناس بالظرف وضروب التفنن فى المأكل والملبس والأزياء المختلفة .

وقامت ، إلى جنب الترف والفساد ، حركة استياء تنعى على العهد فسقه ، وتشدد النكير على المفسدين . وارتفعت أصوات الذين خانهم الحظ فلم يمدهم بالمال كما أمد غيرهم ؛ بل قامت حركة زهد تحتقر الفانيات فى سبيل الباقيات ،

---

(١) طالع المنتخبات ص ٦٩ .
(٢) طالع المنتخبات ص ٦٤ — ٦٧ .
(٣) النخاس : بياع الرقيق . والنخاسة : بيع الرقيق .
(٤) طالع المنتخبات ص ٦٨ .

وتستنكف مما وصلت إليه الأخلاق من الانحطاط ، ومما شاع من فنون الظلم والبغى والفجور .

وإذا نظرنا إلى ذلك العهد من الوجهة الدينية تجلى لنا أن النزعة السائدة هى الحرية ، ولا سيما أن الفلسفة اليونانية كانت قد هبت ريحها فارتفع معها لواء العقل والمنطق فى الأقطار[١] ، وكانت الدولة قد ضمت إليها من الشعوب ما اختلفت أجناسهم ودياناتهم من مسلمين متعددى الفرق ، ونصارى مختلفى النزعات ، ومن يهود وصابئة[٢] وزرادشتيين[٣] ومانويين[٤] متبايني المذاهب[٥]

وكانت المعتزلة من أشهر الفرق الدينية لذلك العهد ، بل أشهرها على الإطلاق وأشدها تأثيراً فى التحرر الفكرى . وظهرت فى أوائل القرن الثامن للميلاد فى مدينة البصرة حول حلقة الحسن البصرى ثم انشقت عنه ، وكان ذلك على يد واصل بن عطاء (٦٩٩ — ٧٤٨ م) وعمرو بن عبيد (٦٩٩ — ٧٦١ م) . وقد تأثرت المعتزلة باللاهوت المسيحى تأثراً جلياً[٦] ، وكان ليوحنا الدمشقى ابن سرجون (٧٣٠ م) أثر واسع فيها . وانصرفت المعتزلة إلى الدفاع عن العقائد الإسلامية دفاعاً شديداً ووضع أصحابها أكثر كتبهم للرد على الرافضة[٧]

(١) طالع المنتخبات ص ٥٢ — ٥٦ .

(٢) «الصابئة» هم الذين تركوا التوحيد إلى عبادة الأصنام وقالوا إنا نحتاج فى معرفة الله إلى متوسطات إما روحانية وهى الكواكب وإما جسمانية وهم بشر يأكلون ويشربون. وانتشرت الصابئة عند الأشوريين والبابليين .

(٣) «الزرادشتيون» : أتباع زرادشت ، ظهر بفارس فى القرن السادس قبل الميلاد ، ويذهب إلى أن أصل العالم المبدآن المتضادان : يزدان (النور) وأهرمن (الظلمة) ولن يزالا فى صراع حتى يتغلب الخير على الشر . وفلسفة زرادشت مدونة فى كتاب يسمى « زندافستا » .

(٤) « المانويون » : أصحاب مانى بن فاتك (القرن الثالث الميلادى) ظهر فى زمان سابور بن أردشير أخذ دينا بين المجوسية والنصرانية ويذهب إلى أن أصل العالم النور والظلمة امتزجا بالخبط والاتفاق ، وفرض على أتباعه العشر فى الأموال وإقامة الصلاة وترك الكذب والسرقة والقتل والزنى .

(٥) طالع المنتخبات ص ٥٩ — ٦٤ .

(٦) طالع كتاب « المعتزلة » لزهدى حسن جار الله ص ٢٣ — ٣٣ .

(٧) الرافضة » : عدة فرق من غلاة الشيعة يجمعهم تكفيرهم أبا بكر وعمر ، وسموا كذلك لأن أنصار زيد بن على بن الحسين سألوه فى أبى بكر وعمر فقال : « لا أقول فيهما إلا خيراً ، إنما خرجت انتقاماً لمقتل جدى الحسين . » فانصرفوا عنه فقال لهم : رفضتمونى . ومعظم فرقهم من المشبهة والمجسمة مثل هشام بن الحكم .

والجهمية (١) الجبرية والثنوية(٢) وسائر المجوس . وقد ذكرت امرأة واصل بن عطاء أن زوجها كان ، إذا جنّه الليل ، يصفّ قدميه يصلى ، ولوح ودواة موضوعان أمامه ، فإذا مرت آية فيها حجة على مخالف جلس فكتبها ثم عاد فى صلاته . قال عمرو بن عبيد : « ليس أحد أعلم بكلام غالية الشيعة ، ومارقة الخوارج ، وكلام الزنادقة والدُّهرية(٣) والمُرْجئة(٤) والرد عليهم منه . » ولم يكتف واصل بالرد على المخالفين وهو قابع فى بيته بالبصرة ، بل كان يرسل الوفود من أصحابه إلى جميع الجهات لهذا الغرض . وهكذا قامت ضجة عالية بين الفرق الدينية والاجتماعية ، واشتد النزاع بينها ، وشاعت أساليب المساجلة والنقاش ، وكثرت الفرق كثرة يضيق المقام بذكرها كلها ، وفيما ذكرناه منها كفاية .

تلك صورة مصغرة للبيئة الاجتماعية فى عهد الجاحظ : تعدُّد فى العناصر جر انحطاطاً فى الأخلاق ؛ واقتصاديات واسعة أدت إلى الترف فى المعيشة ، ولهو زاده التسرى والرقيق إيغالاً فى الفسق ، وزاد الحياة الفنية سعة وانطلاقاً ، كما بعث النفوس العالية إلى الاستياء والثورة على الفساد الشائع وإلى الزهد فى الفانيات ؛ وفرق دينية ومذاهب متباينة أشهرها المعتزلة .

٣ — البيئة الثقافية

كانت البيئة الثقافية من أقوى العوامل فى النهضة العباسية ، إذ أخذ الخلفاء يشجعون الحركة العلمية فى نواحيها المتعددة ويمدونها بمالهم وجاههم . وقد بالغوا

---

(١) « الجهمية » : مذهب أتباع الجهم بن صفوان ويقول بالجبر ، ونفى اختيار العباد لأفعالهم .

(٢) « الثنوية » : مذهب القائلين بمبدأين أزليين هما النور والظلمة .

(٣) « الدهرية » : مذهب من يقولون بقدم العالم وقدم الدهر وتدبيره للعالم وتأثيره فيه ، وقد أشير إليهم فى القرآن الكريم : «وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر .» وجاء ذكر مذهبهم فى الشعر أيضاً على حد قول الشاعر :

الدهــــر أبلانى وما أبليته ... والدهر غيرنى وما يتغير

(٤) « المرجئة » : فرقة من المتكلمين اختلف فى سبب تسميتهم كذلك فقيل لقولهم بتأخير العمل عن الإيمان ، فلا تضر مع الإيمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة . وقيل سميت المرجئة مرجئة لأنهم يرجئون أمر أهل الكبائر إلى الله تعالى .

فى إكرام الأدباء فجالسوهم ، وولوهم أحياناً المناصب العالية . ثم حذا الأمراء والوزراء حذو الخلفاء فى أكبر مدن الدولة ، وكانوا يتنافسون فى ذلك كما يتنافسون فى فتح دور العلم . وظهر فى الجيل الجديد ميل شديد إلى الحياة العلمية ، ولا عجب فى ذلك وقد رأينا ما كان هنالك من تمازج مدنيات واختلاط حضارات ، ووعى عام أرهفه ما ناله القوم من ثقافات الشعوب المتمدنة .

أما الثقافات التى كانت شائعة فى تلك الأيام والتى كان لها أثر كبير فى الأدب فهى ثلاث : الثقافة العربية الخالصة التى تعتمد على القرآن وما يتصل به من علوم الدين كالتفسير والفقه والكلام والتصوف وما إلى ذلك[1] ، اعتمادها على الشعر وما يحيط به من العلوم الأدبية كالنحو واللغة وغيرها . ثم الثقافة اليونانية ، وتليها الثقافة الشرقية . ولقد وصلت علوم اليونان وآدابهم إلى الشرق من عهد فتوحات الإسكندر ، فنشر اليونان فى الشرق فلسفتهم وطبهم وفلكهم[2] ، وذاعت ثقافتهم أيضاً على يد الفرس . أما الثقافة الشرقية فهى ثقافة معقدة وهى التى نجدها عند الفرس والهنود والأمم السامية التى كانت منتشرة فى العراق ؛ وقد وصلت الثقافة الفارسية بواسطة امتزاج العرب بالفرس وانتقال الخلافة إلى بغداد واشتغال الوزراء والكتّاب الفرس بالعربية . وكذلك اتصلت الثقافة الهندية بالدولة بواسطة التجارة والفتوحات التى شملت قسما كبيراً من الهند ، وبانضمام بعض الهنود إلى الإسلام ، وكان منهم شعراء وعلماء بالعربية كأبى عطاء السندى الشاعر ، وابن الأعرابى[3] . وكان الفرس القناة الثانية التى جرت ثقافة الهند إلى العرب .

وكانت هذه الثقافات المختلفة تؤلف التراث العلمى فى ذلك العصر ، وفيها زبدة علوم الأشوريين والبابليين والفينيقيين والمصريين والهنود والفرس واليونان والرومان . وكان لا بد للرجل المستنير الذى يعمل فى مناصب الدولة إذ ذاك ،

---

(١) طالع المنتخبات ص ٥٤ — ٥٥ .

(٢) طالع المنتخبات ص ٥٦ .

(٣) ابن الأعرابى: هو محمد بن زياد المعروف بابن الأعرابى أبو عبد الله (١٥٠—٢٣١) هـ راوية، ناسب، علامة باللغة من أهل الكوفة . كان يحضر مجلسه زهاء مئة إنسان كان يسأل ويقرأ عليه فيجيب من غير كتاب؛ ولم ير أحد فى علم الشعر أغزر منه . مات بسامراء ، وله تصانيف كثيرة .

ويقوم فى الأمة مقام الرجل القائد ، من أن يأخذ بحظ من هذه الثقافات جميعاً .

ويرجع انتشار تلك الثقافات فى البلاد إلى المدارس والترجمات وتشجيع الخلفاء ونشرهم لها. فمدارس جُندَيْسابور والرُّها ونَصيبين وحرّان كانت تنشر الثقافة اليونانية ، ومدرستا الرها ونصيبين كانتا تزخران بالفلسفة اليونانية والتعاليم المسيحية . وكان فى حران جماعة وثنية تسمى الصابئة نبغت فى الدراسات اليونانية ، من علمية وأدبية. أما جنديسابور فقد أسس النساطرة فيها مركزاً مهماً للثقافة اليونانية ، ونالت شهرة فائقة فى الطب . وكانت هذه المدارس كلها منارات إشعاع فى جميع العالم العربى .

وكانت حركة النقل والترجمة(١) والنسخ هى القناة الكبرى التى جرت جميع العلوم القديمة إلى الدولة العباسية ، كما كانت المطبعة الحية التى نشرت تلك العلوم فى جميع البلاد وجعلتها فى متناول الجميع . وقد ساعد الخلفاء وأولو الأمر تلك الحركة المباركة فأتت بأطيب الأثمار ؛ وإذا بأرسطو وأفلاطون وبقراط وجالينس وغيرهم ينطقون بلغة العرب ؛ وإذا كتاباتهم فى أيدى الكثيرين توقد فى العقول نار نهضة مثمرة . واشتهر من النقلة آل بُخْتَيْشوع ، وآل حُنَين ، وآل ما سَرْجويه، وآل نوبخت، وغيرهم كثيرون ممن كان لهم فضل كبير على العلم وأهله . وقد اعتمد العرب فى الفلسفة والطب والهندسة والنجوم والموسيقى على اليونان ، وفى النجوم والسِّيَر والآداب والتاريخ والحِكَم على الفرس ، واقتبسوا من الهند طبها والعقاقير والحساب والنجوم والأقاصيص والموسيقى ، ومن الأنباط والكلدان الفلاحة والزراعة والتنجيم والسحر والطلاسم ، ومن المصريين الكيمياء والتشريح . ومما يؤسف عليه أن الحركة العلمية العباسية لم تستغل الأدب اليونانى استغلالا يذكر كما استغلت العلم اليونانى والفلسفة اليونانية ؛ فلم تتعرض لشىء من كتبهم التاريخية أو الأدبية أو الشعر ، ولذلك أسباب يضيق عن ذكرها المقام(٢) .

---

(١) طالع المنتخبات ص ٥٠ .

(٢) طالع كتابنا « تاريخ الأدب العربى » ص ٢٥٦ .

انتشرت الثقافات الأجنبية المختلفة فى العالم العربى ، وكان لكل ثقافة نزعة خاصة . أما العقل اليونانى فميال إلى فلسفة التعليل والتحليل ، ميال إلى المعنويات أكثر من ميله إلى الماديات ، ميال إلى التعمق والعلم . فكان من البواعث الكبرى على إحلال العقل محلا عالياً عند العرب فى ذلك العهد ، وعلى التصنيف والاشتغال بالعلوم . وأما العقل الهندى فهو ميال إلى التأمل ، والفكر الهندى هو من ثم تأملى شعرى أكثر مما هو علمى ، هو فكر تصويرى خيالى تمثيلى ، شديد الاتصال بالعاطفة ؛ وعاطفة الزهد والتصوف عند الهنود قوية لها أثر كبير فى حياتهم . فكان العقل الهندى من البواعث الكبرى على الحكمة وشعاب الزهد والقصص عند العرب ، فى حين كان العقل الفارسى وعاء حوى العلم القديم كله تقريباً ، فكان مؤلفاً من عنصر فارسى وعنصر يونانى وعنصر هندى . والأثر الهندى فى الثقافة الفارسية أوسع من الأثر اليونانى . إلا أن الحضارة الفارسية تغلب عليها المادة . فكان العقل الفارسى من الأسباب التى أشاعت الزخرف والتفخيم والإطناب فى الكلام والكتابة ، وتوسيع حقل الموسيقى وآلاتها .

تلك كانت البيئة الثقافية فى عهد الجاحظ ، وتلك كانت الحال الاجتماعية والسياسية : تمازج ونزعات مختلفة ، وفوران فى كل الحقول ، ومذاهب وفروع فى المجتمع والسياسة والدين والعلوم ، وتبسط فى كل شىء ، وتداخل وتنافر . ولقد عاش الجاحظ فى تلك البيئات مصوراً ومؤرخاً ، يحيا ويراقب ، يختبر وينظر ، يمتزج وينعزل ، وهكذا كان العصر كله مصوّراً فى ذاته وفى كتبه ، تتجلى فيه وفيها النزعات والثقافات ، فكان بذلك علماً من أعلام التاريخ والأدب ، وركناً من أركان العلم والتحرّى .

الفصل الثانى

الجاحظ في عصره

١ – حياة الجاحظ

ا – أصل الجاحظ وطلبه للعلم

اختلف المؤرخون فى أصل الجاحظ وفى تعيين سنة ميلاده ، وقالوا فى ذلك أقوالا مضطربة . فذهب بعضهم إلى أنه من أصل عربى ، وذهب بعضهم الآخر إلى أنه من العناصر الإفريقية التى تداخلت فى العنصر العربى ، والفريقان ينسبانه إلى كنانة أصيلا أو مولى . وقد أجمع المؤرخون من مثل ابن الأنبارى وابن عساكر وياقوت الرومى وغيرهم على أن الجاحظ كنانى ليثى نسبه إلى ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة بن خزيمة ؛ وقالوا إنه كان مولى أبى القلمس عمرو بن قَلَع الكنانى[١] . وكان جده أسود يقال له فزارة ، وكان جمالا لعمرو بن قلع الكنانى . أما كنيته فقد قال أبو بكر العمرى : سمعت الجاحظ يقول : « نسيت كنيتى ثلاثة أيام ، فأتيت أهلى ، فقلت : بمن أكنى ؟ فقالوا : بأبى عثمان . »

ولد أبو عثمان عمرو بن بحر ، الملقب بالجاحظ لبروز عينيه من حدقتيهما الواسعتين ، فى البصرة نحو سنة ٧٧٥ م – ١٥٩ هـ . وتوفى والده وهو بعد حديث السن . ولما شب طلب العلم أولا فى الكتاب مع أولاد القصابين ، ثم راح يتعيش بعمل يديه فيبيع الخبز والسمك بالبصرة وهو لا يألو جهداً فى طلب العلم ومطالعة الكتب[٢] . وكانت البصرة لذلك العهد أكبر حواضر العلم والأدب بعد بغداد ، يجتمع فى مسجدها طائفة حسنة من العلماء وأرباب النحو واللغة

(١) ياقوت : « معجم الأدباء » ١٦ ص ٧٤ .

(٢) المصدر نفسه .

والأدب عُرفوا « بالمسجديين[١] » ، فأقبل إليهم الجاحظ يجالسهم ويأخذ عنهم الكثير بفضل ذكائه المتوقد وحافظته القوية ؛ وما إن أيفع[٢] حتى تلقى الفصاحة وأساليب التعبير شفاهاً عن خطباء العرب فى المربد[٣] وقد ألف التردد إليه منذ حداثته . وكان إلى ذلك يكترى[٤] حوانيت الوراقين ويبيت فيها أحياناً للمطالعة[٥] .

ولما اجتمع له قدر صالح من العلم والأدب قصد بغداد واتصل فيها بالكبار من رجال الدين وعلماء اللغة .

وتردد إلى مجالس الأدباء من مثل ابن وهب وابن الزيات ، فوجد عندهم ، على ما قال هو نفسه ، ما لم يجده عند مشايخه الذين أخذ عنهم الشعر والأدب ، وبهم عرف ماهية الشعر ، وقام بحق الأدب والكتابة .

ب – الرجل الكاتب والعالم

ظل الجاحظ يزاول فنون الأدب والأخبار واللغة والحكمة والكلام ، ويُعمل الفكر ويُحلّل ، ويتوسع فى ما حصّله ، حتى تمت له ثقافة راقية ، وتنبه عقله ، فتمكن من التعرض لقضايا خطيرة فى الدين ، وكان له مذهب وأتباع ؛ وشرع يؤلف الكتب ، وكان فى أول أمره ينسبها إلى ابن المقفع[٦] وسهل بن هارون حتى تسير .

---

(١) « المسجديون » قوم اتخذوا المسجد منتدى لهم وطال غشيانهم له فعرفوا به ونسبوا إليه . . . وكانوا خليطاً من الناس منهم الشعراء ومنهم الرواة ومنهم مصطنعو الحكمة . . . وكانوا لا يغرقون فى فن ولا يتقيدون بنوع من العلم . . . ويظهر أن هؤلاء المسجديين كان لهم أثر غير قليل فى التوجيه الأدبى لكثير من أدباء ذلك العهد ، ففى أخبار أبى نواس أنه لما شب وكبر صحب أهل المسجد والمجان ، وأكبر الظن أن المقصود بأهل المسجد هم المسجديون ، وكذلك الجاحظ كان مجلسه فى أول أمره إلى هؤلاء المسجديين . (البخلاء . تحقيق طه الحاجرى) .

(٢) أيفع الغلام : ترعرع وناهز البلوغ فهو يفع ويافع .

(٣) المربد : سوق قرب البصرة كان يختلف إليه الشعراء والخطباء وهو متسع كانت الإبل تربد فيه أى تربط للبيع وهو مجتمع العرب ومتحدثهم . وأشهر أسواق العرب : « عكاظ » بين نخلة والطائف و « مجنة » على أميال من مكة و « ذو المجاز » بمنى خلف عرفات .

(٤) يكترى : يستأجر .

(٥) طالع المنتخبات ص ٤٥ .

(٦) طالع المنتخبات ص ٤٤ – ٤٥ .

فقد روى المسعودى فى كتابه « التنبيه والإشراف » أن الجاحظ كان يقول : « كنت أؤلف الكتاب الكثير المعانى ، الحسن النظم ، وأنسبه إلى نفسى ، فلا أرى الأسماع تصغى إليه ، ولا الإرادات تتيمم نحوه ، ثم أؤلف ما هو أنقص منه رتبة ، وأقل فائدة ، وأنحله[١] عبد الله بن المقفع أو سهل بن هارون ، أو غيرهما من المتقدمين ممن صارت أسماؤهم فى المصنفين ، فيقبلون على كتبها ، ويسارعون إلى نسخها ، لا لشىء إلا لنسبتها للمتقدمين ، ولما يداخل أهل هذا العصر من حسد من هو فى عصرهم ومنافسته على المناقب التى عُنى بتشييدها . »

وما إن كان القرن التاسع (الثالث الهجرى) حتى طارت للجاحظ شهرة كبيرة بين كتاب عصره ، وترامت تلك الشهرة إلى أذن المأمون — وقد قرأ للجاحظ « كتاب الإمامة » وأعجب به — فاستقدمه وسأله أن يكتب له رسالة فى العباسية والاحتجاج لها .

ولما رأى المأمون ما للجاحظ من مقدرة على الكتابة ومن سعة فى الثقافة ، أراد أن يسند إليه ديوان الرسائل وهو من أهم ما يدور عليه محور السياسة العامة للدولة لا يتولاه إلا الحاذق الذى ضرب بالسهام الوافرة فى مختلف العلوم والآداب ، وصاحب السياسة والتدبير ، والمتفوق فى صنوف البلاغات وضروب الإبانات . غير أن الجاحظ لم يمكث فى ذلك المنصب سوى ثلاثة أيام[٢] ، وكأنه لم يستطع الخضوع لنظم الدواوين وما يقتضيه سير العمل فيها ، ولا تمكن من الإقلاع عن العبث فى عمل يتطلب الرصانة والوقار ، ولا احتمل منافسة الحساد الذين ثارت عليه حفائظهم[٣] خوفاً على شهرتهم ومنزلتهم فى الدولة ومجالس الأدب. وكان سهل بن هارون يقول : « إن ثبت الجاحظ فى هذا الديوان أفل نجم الكتاب . »

خرج الجاحظ من ديوان الخليفة وآثر أن يعيش مطلقاً من كل قيد . وما هى إلا سنوات حتى اتصل اتصالا مكيناً بمحمد بن عبد الملك

---

(١) أنحله : أنسبه إلى

(٢) ياقوت : « معجم الأدباء » ، الجزء ١٦ ص ٧٨ — ٧٩ .

(٣) الحفائظ جمع حفيظة : الغضب والحمية فيما يحفظ .

المعروف بابن الزيات وزير المعتصم ثم الواثق من بعده . وكان ابن الزيات من أكابر رجال الأدب والسياسة ، فكتب له الجاحظ ، ومدحه ، وأهداه « كتاب الحيوان »[1] فأجازه الوزير بخمسة آلاف دينار . وفى تلك الأثناء قام الجاحظ بأسفار إلى دمشق وأنطاكية وربما وصل إلى مصر أيضاً ، فزادته الأسفار والضرب فى الآفاق اطلاعاً وسعة معرفة ، ومهرت خياله بصور جديدة .

ولما مات الواثق وتولى المتوكل ، كان فى نفس المتوكل من ابن الزيات شىء ، وقد جرى سنة ٨٤٧ م أن منافس ابن الزيات ، القاضى أحمد بن أبى دُؤاد ، استمال الخليفة ، وهو عدوّ المعتزلة والحرية الفكرية ، فأسقط ابن الزيات وفتك به . فهرب الجاحظ ، ولكنه قُبض عليه . وقد جاء فى معجم الأدباء لياقوت[2] عن أبى عبد الله المرزبانى أنه قال : « حدث إسحاق الموصلى وأبو العيناء قال : كنت عند أحمد بن أبى دؤاد بعد قتل ابن الزيات ، فجىء بالجاحظ مقيداً ، وكان من أصحاب ابن الزيات ، وفى ناحيته ، فلما نظر إليه قال : والله ما علمتك إلا متناسياً للنعمة ، كفوراً للصنيعة، معدّداً للمساوى ، وما فتَّنى باستصلاحى لك ولكن الأيام لا تُصْلِح منك لفساد طويتك ، ورداءة داخلتك ، وسوء اختيارك ،وتغالب طبعك . فقال له الجاحظ : خفّض عليك ، أيدكَ الله ، فوالله لأن يكون لك الأمر على خير من أن يكون لى عليك ؛ ولأن أسىء وتحسن أحسن عنك من أن أحسن فتسيىء ؛ وأن تعفو عنى حال قدرتك أجمل من الانتقام منى . فقال له ابن أبى دؤاد : قبّحك الله، ماعَلِمْتك إلا كثير تزويق الكلام، وقد جعلتَ ثيابك أمام قلبك، ثم اصطفيتَ فيه النفاق والكفر ، ما تأويل هذه الآية : « وكذلك أخْذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة ، إنّ أخْذه أليم شديد » ؟ قال : تلاوتها تأويلها ، أعز الله القاضى ، فقال : جيئوا بحدّاد . فقال : أعز الله القاضى ، ليفكّ عنى أو ليزيدنى ؟ فقال : بل ليفك عنك . فجىء بالحداد ، فغمزه بعض

---

(١) طالع ص ٣٤ من هذا الكتاب .

(٢) الجزء السادس عشر ص ٧٩ .

أهل المجلس أن يعنف بساق الجاحظ ، ويطيل أمره قليلا . فلطمه الجاحظ ، وقال : اعمل عمل شهر فى يوم ، وعمل يوم فى ساعة ، وعمل ساعة فى لحظة ، فإن الضرر على ساقى ، وليس بجذع ولا ساجة[١] ؟ فضحك ابن أبى دؤاد وأهل المجلس منه .

وقال ابن أبى دؤاد لمحمد بن منصور وكان حاضراً : أنا أثق بظرفه ولا أثق بدينه ، ثم قال : يا غلام ، صِرْ به إلى الحمام ، وأمِطْ عنه الأذى ، واحمل إليه تخت ثياب وطويلة ، وخُفّاً ؛ فلبس ذلك ، ثم أتاه فتصدر فى مجلسه ، ثم أقبل عليه وقال : هات الآن حديثك يا أبا عثمان ! »

وقدّم الجاحظ لابن أبى دؤاد كتاب « البيان والتبيين »[٢] فأعطاه فيه ابن أبى دؤاد خمسة آلاف دينار . ولما فُلج القاضى وخلفه فى القضاء ابنه أبو الوليد لزمه الجاحظ إلى أن صرف عن القضاء سنة ٨٥١ م .

واتصل الجاحظ بالفتح بن خاقان وزير المتوكل ، وقدّم له بعضاً من كتبه منها « كتاب مناقب الترك وعامة جند الخلافة . » وكانت بين الرجلين مودة ومراسلة . وطالما أثنى الفتح على الجاحظ عند المتوكل وأخذ له الجوائز ؛ إلا أن المتوكل لم يقرّبه منه لدمامة خلقه .

جـ - الشيخ العليل

واشتدت وطأة السنين على الجاحظ ووهنت قواه ، وأصيب بفالج نصفى ، فعاد إلى البصرة حيث لزم بيته سجين الهرَم . حدّث المبرّد قال: «دخلت على الجاحظ فى آخر أيامه ، فقلت له : كيف أنت ؟ فقال : كيف يكون من نصفه مفلوج لو حز بالمناشير ما شعر به ، ونصفه الآخر منقرس[٣] لو طار الذباب بقربه لآلمه ، وأشد من ذلك ست وتسعون سنة أنا فيها »[٤] .

---

(١) ساجة واحدة الساج : شجر عظيم صلب الخشب جمعه : سيجان . ويطلق الساج على الخشب مطلقاً .

(٢) طالع ص ٢٨ من هذا الكتاب .

(٣) أى مصاب بالنقرس: داء يأخذ فى الرجل، ويقال هو ورم يحدث فى مفاصل القدم وفى إبهامها .

(٤) « معجم الأدباء » الجزء ١٦ ص ١١٣ - « وفيات الأعيان » الجزء ١ ص ٤٩١ .

وهرع العلماء والأدباء إلى زيارة الشيخ العليل، معلّم العالم العربي بمجمله وتوافدوا من البصرة وبغداد وسواهما من البلدان ، وكان المبرّد صاحب « الكامل » من جملة الزائرين .

وأخذ ذلك المصباح يخبو شيئاً فشيئاً ، وأخذ نوره يتضاءل حتى انطفأ تاركاً فى البلاد نور العلم والثقافة الواسعة . وهكذا مات الجاحظ معلم العقل والأدب سنة ٨٦٨ م — ٢٥٥ هـ . وقد انهالت عليه الكتب يوماً وهو جالس بينها يقرأ فقضت عليه[١] . لقد لحدته ميتاً بعد أن كانت سلوته فى حياته وشغله الشاغل إلى ساعة مماته .

٢ — شخصية الجاحظ

ا — شخصيته الأخلاقية

إن من استقرى أخبار الجاحظ وقلّب صفحات آثاره وقف على شخصية عجيبة فى انفتاحها واتساعها وغنى ما لديها من طاقة ووسائل . ولئن كان الجاحظ قبيح المنظر ، مُشوّه الوجه ، ناتئ العينين ، لقد جمع إلى قبح الخارج صفات كثيرة جعلت منه رجل العصر ، يروق الكبير والصغير والعالم والجاهل . كان مطبوعاً على الظرف والفكاهة ينظر إلى الأمور نظراً لا اكتراثياً ، ليس هو نظر السوداويّ ولا نظر العصبيّ ؛ وكان أميل إلى التفاؤل منه إلى التشاؤم، يبدو عليه السرور وحب الدعابة وخفة الروح ، وينظر إلى الأمور كما هى فى واقعيتها كما ينظر إلى الناس نظر الخبير بطباعهم وأخلاقهم فيحاسن الكبراء دون إسفاف ويجتنب مخاشنتهم تفادياً من شرهم ، ويحلم عن الأشرار طبعاً وتطبعاً ، ويبتعد عن الحاسدين للتخلص من أشراكهم . وهو أبداً لطيف المعشر، حلو الحديث، حسن المحاضرة ، حاضر الجواب ، سريع النكتة ، ساخر وسخره ناعم[٢] .

(١) « شذرات الذهب » ٧ : ١٢٢ .

(٢) طالع المنتخبات ص ٩٦ — ٩٨ .

وكان إلى ذلك يحب اللهو وسماع القيان والمغنين لا يأنف إلا مما يضيع الوقت سدى ، والوقت عنده أثمن من المال ، يحرص عليه الحرص الشديد .

ب – شخصيته الثقافية

كان الجاحظ ذا ثقافة واسعة جداً تجعل منه دائرة معارف حية، فقد وعى فى صدره جميع معارف عصره فى الأدب والدين والعلم والفلسفة . قال أبو بكر أحمد بن على[١] : « كان أبو عثمان الجاحظ من أصحـــاب النظّام[٢] وكان واسع العلم بالكلام ، كثير التبحر فيه ، شديد الضبط لحدوده ، ومن أعلم الناس به وبغيره من علوم الدين والدنيا . وله كتب كثيرة مشهورة جليلة فى نصرة الدين ، وفى حكاية المخالفين ، والآداب والأخلاق ، وفى ضروب من الجد والهزل ، وقد تداولها الناس وقرأوها وعرفوا فضلها . وإذا تدبر العاقل المميز أمر كتبه علم أنه ليس فى تلقيح العقول ، وشحذ الأذهان ، ومعرفة أصول الكلام وجواهره، وإيصال خلاف الإسلام ومذاهب الاعتزال إلى القلوب كتب تشبهها. والجاحظ عظيم القدر فى المعتزلة وغير المعتزلة من العلماء الذين يعرفون الرجال ويميزون الأمور . »

وكانت مصادر ثقافة الجاحظ كثيرة منها أساتذته[٣] ، وما طالعه من كتب العرب واليونان والفرس والهنود وغيرهم ، ثم تجاربه ومعايناته . أما أساتذته فعرب المربد[٤] الخلّص الذين كان يصغى إلى أقوالهم، وهو حدث، قرب البصرة ؛ وأبو عبيدة (٧٢٨ – ٨٢٤ م) الذى قال فيه الجاحظ : « لم يكن

---

(١) أبو بكر أحمد بن على المعروف بابن الإخشيد من أفاضل المعتزلة وزهادهم . وكان فصيحاً له معرفة بالعربية والفقه . من مؤلفاته : « نقل القرآن » ، و « الإجماع » ، و « اختصار تفسير الطبرى » . توفى سنة ٩٣٧ م – ٣٢٦ هـ .

(٢) النظام : هو أبو إسحق إبرهيم بن سيار بن هانىء البصرى (١٨٥ – ٢٢١) عالم فيلسوف من كبار أئمة المعتزلة واسع الاطلاع تبعته فرقة من المعتزلة نسبت إليه وسميت « النظامية » . أما شهرته بالنظام فأشياعه يقولون إنها من إجادته نظم الكلام وخصومه يقولون إنه كان ينظم الخرز فى سوق البصرة .

(٣) ياقوت : « معجم الأدباء » الجزء ١٦ ص ٧٤ – ٧٥ .

(٤) انظر الحاشية ٣ ص ١٦

فى الأرض خارجى ولا إجماعىّ أعلم بجميع العلوم منه »[١]، والذى له من المؤلفات نحو مئتين فى الحمام ، والحيات ، والعقارب ، والخيل ، والإبل ، والزرع ؛ والأصمعى (٧٣٩ — ٨٣٠ م) وهو صاحب لغة ونحو ، وإمام فى الأخبار والنوادر والملَح والغرائب ، جمع شتيت اللغة فى الشجر ، والنبات ، والإبل ، والشاء ، والوحوش ؛ وأبو زيد الأنصارى (— ٨٣٠ م) وهو من أئمة الأدب ، غلبت عليه اللغة والنوادر والغريب ، وقد ألّف فى القوس ، والترس ، والإبل ، والوحوش ، وخلق الإنسان ، والمطر ، والنبات ؛ وأبو الحسن الأخفش (— ٨٣٠ م) وهو من أكابر أئمة النحو فى البصرة ، وتخرج الجاحظ فى الفلسفة والدين على أبى إسحاق النظّام (— ٨٣٥م) وقد قال عنه تلميذه : «الأوائل يقولون : فى كل ألف سنة رجل لا نظير له ، فإن كان ذلك صحيحاً فهو أبو إسحاق النظّام » . وكان النظّام مطبوعاً على البحث عن أصل كل شىء ، وعن علّته ، ولا يقتصر على الانقياد والمحاكاة ؛ ولم يكتف بطلب الفلسفة والكلام بل عكف على طلب العلم ولا سيما علم الطبيعة . وكان يؤثر الجمل القصيرة فى كتابته ، ويعتبر الشك أساساً للبحث[٢] ، ويستخدم المنطق فى بحثه عن الحقائق ، ويحارب أوهام العامة وخرافاتهم . وكان واسع الحرية فى التفكير ، شديد الجرأة على المحدثين ، قليل الإيمان بصحة رواية الحديث وقد أثّر النظّام فى الجاحظ تأثيراً بليغاً ، وكانت طريقته فى التحرى من أركان طريقة الجاحظ العلمية .

ولم يكتف الجاحظ بالأساتذة الأعلام ، بل راح ينقّب ويطالع ما ترجمه ابن البِطريق ، وحنين بن إسحاق ، وبُخْتَيشوع ، وغيرهم من مشاهير النقلة ، قال أبو هفان : « لم أر قط ولا سمعت من أحبّ الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ ، فإنه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته ، كائناً ما كان ، حتّى إنه كان يكترى دكاكين الوراقين ، ويبيت فيها للنظر[٣] . »

---

(١) « البيان والتبيين » ١ : ٢٢٤ . وقد جلس الجاحظ إلى أبى عبيدة كما ورد ذلك فى « البيان » ٣ : ٢٠٦ .

(٢) «الشك أساس البحث» كان مذهب النظام وهو المذهب الذى نادى به الفيلسوف الفرنسى ديكرت بعد النظام بثمانية قرون .

(٣) « معجم الأدباء » لياقوت ، الجز ١٦ ص ٧٥ .

جـ - شخصيته الدينية

كان الجاحظ مؤمناً حسن الإيمان ، يرى أبداً فى الخلائق يد الخالق وحكمته . وكان معتزلياً يُشْهَد له بالتفوق فى الكلام والحجة . قال ابن قتيبة : « إن الجاحظ آخر المتكلمين وأحسنهم للحجة ، حتى إنه ليعظم الصغير ويصغر العظيم[١] . » . وأهم النقاط التى اشتهر بها الجاحظ ما يلى :

كان الجاحظ يقول بقدم المادة على نحو ما كان يذهب إليه قدامى فلاسفة اليونان الطبيعيين . وقال الجاحظ بالطبائع للأجسام متبعاً فى ذلك آراء الطبيعيين الأقدمين من الفلاسفة ، وأوجب لها أفعالا مخصوصة ، فقال إن العباد لا فعل لهم سوى الإرادة ، أما سائر الأفعال فتقع منهم طباعاً لا اختياراً . وذهب إلى أن الله تعالى لا يقدر أن يُعرِّى الجسم من أفعاله . وبسبب إثباته الطبائع للأجسام قال إن الله لا يدخل النار أحداً ، وإنما النار تجذب أهلها إلى نفسها بطبيعتها وتمسكهم فى نفسها على الخلود ، ثم تُحوِّلهم إلى طبيعتها وتجعلهم جزءاً منها فلا يبقون فيها مخلدين فى العذاب .

وقد نفى الجاحظ العصمة عن الأنبياء وخالف بذلك أكثر المعتزلة الذين يقولون إن ذنوب الأنبياء خطأ من جهة التأويل والاجتهاد أو السهو ، ولا يجوز عليهم أن يفعلوا قصداً ما علموا أنه ذنب[٢] .

* * *

تلك كانت حياة الجاحظ ، وتلك صورة مصغرة لشخصيته الجبارة التى ملأت تاريخ الأدب العربى بعقلها الواسع وثقافتها البعيدة الغور . وقد تجلت تلك الشخصية فى مؤلفات الجاحظ الكثيرة .

---

(١) « تأليف مختلف الحديث » ص ٧١ .

(٢) طالع كتاب « المعتزلة » لزهدى حسن جار الله ، ص ١٤٥ - ١٤٨ .

الفصل الثالث

جوانب الجاحظ

١ ــ آثار الجاحظ

خلّف لنا الجاحظ مؤلفات كثيرة ما بين كتب ورسائل وقد قيل إن آثاره هذه بلغت ما ينيف على ثلاث مئة وخمسين كتاباً رأى أكثرها فى مشهد أبى حنيفة النعمان ببغداد ، سبط ابن الجوزى المتوفى سنة ٦٥٤ هـ[1]. وهى ، وإن لم تكن كلها له ، تؤلف موسوعة علمية وأدبية . ومما يؤسف عليه أنها لم تصل إلينا كلها ، فقد ضاع منها عدد يذكر ، وأما ما وصل إلينا منها فقد طبع معظمه ولا يزال بعضه مخطوطاً ومبعثراً فى خزائن شتى بين الشرق والغرب .

وإنه لمن الصعب جمع تلك المؤلفات فى فئات مرتبة على حسب مادّتها ، لأن الكثير منها مختلف الموضوعات ، متعدد المعانى . ومن ثم كان تقسيمنا التالى لآثار الجاحظ على وجه التغليب .

ا ــ فى الفلسفة والاعتزال والدين

« كتاب الاستطاعة وخلق الأفعال » وضعه الجاحظ لتقرير مذهب الاعتزال ، و « كتاب الاعتزال وفضله » ولعل هذا الكتاب هو المسمى أيضاً «فضيلة المعتزلة » ، والذى ردّ عليه ابن الرّاوندىّ بكتابه « فضيحة المعتزلة » ، و «كتاب خلق القرآن » ، و «كتاب آى القرن » ، و « كتاب الردّ على اليهود » و « كتاب الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير » ، وهو يبحث فى تعليل الأشياء الطبيعية وما فى الكائنات من الدلائل على وجود الصانع إلخ . . .

ب ــ فى السياسة والاقتصاد

« كتاب الاستبداد والمشاورة فى الحرب » ، و « رسالة فى مناقب الترك

---

(١) « مرآة الزمان » ، الورقة ٥٨ من المجلد الثالث من الجزء العاشر (مصورة دار الكتب المصرية) .

وعامة جند الخلافة » و« رسالة فى الخراج» و « كتاب أقسام فضول الصناعات ومراتب التجارات » و«كتاب الزرع والنخل والزيتون والأعناب » إلخ . . .

ج – فى الاجتماع والأخلاق

« رسالة فى إثم السكر » و« كتاب أخلاق الشطّار » و « كتاب أخلاق الفتيان وفضائل أهل البطالة » و « كتاب خصومة الحُول والعُور » ، و« كتاب البخلا» . . .

د – فى التاريخ والجغرافية والطبيعيات والرياضيات

« كتاب الأخبار وكيف تصحّ » و « كتاب الملوك والأمم السالفة والباقية » ، و « كتاب الأمصار » و « رسالة فى الكيمياء » و « كتاب المعادن » ، و « كتاب نقض الطب » و« كتاب الحيوان » .

هـ – فى العصبية وتأثير البيئة

« كتاب القحطانية والعدنانية » و« كتاب العرب والعجم » و «رسالة فى فخر السودان على البيضان » و« كتاب مفاخرة السودان والحُمران » إلخ . . .

و – فى الأدب والشعر والعلوم اللسانية والأدبية

« كتاب البيان والتبيين » إلخ . . .

ز – فى موضوعات شتى

« رسالة التَّرْبيع والتدوير » و « رسالة فى العشق والنساء » و« كتاب الإخوان » إلخ. . . .

* * *

تلك بعض آثار الجاحظ ، وإن من أجال النظر فى عنواناتها يلاحظ ما هنالك من سعة وتنوع . فهى تشمل العصر بكامله : فى سياسته، وأخلاقه ، ونزعاته ، ومذاهبه ، وعلومه فى أصولها وفروعها . وإننا نقصر درسنا على إحدى رسائل الجاحظ وهى « رسالة التربيع والتدوير » ، ثم على ثلاثة من كتبه هى « البيان والتبيين » ، و « البخلاء » ، و « الحيوان » .

رسالة التربيع والتدوير(١)

هى رسالة كتبها الجاحظ فى هجاء أحمد بن عبد الوهاب ، فنعته بالعرض والضخامة دون الطول وفصل لذلك شكل التربيع والتدوير الذى سميت به الرسالة. وقد وصف ابن عبد الوهاب بأنه من بجيلة ومن أصحاب صالح بن على وسليمان ابن وهب وندماء جعفر الخياط ، وقال إنه من الرافضة المشبهة ، ونعته بأنه « يعدّ أسماء الكتب ولا يفهم معانيها ، ويحسد العلماء من غير أن يتعلق فيهم بسبب ، وليس فى يده من جميع الآداب إلا الانتحال لاسم الأدب » . وذكر أنه كان يُخاشنه ويطاوله . ولأجل ذلك كله أنشأ هذه الرسالة يتنادر بها على ابن عبد الوهاب ويصف ما هو عليه من دمامة الخَلق وقبح التركيب والجهل، ويُعاييه(٢) بمئة مسألة يطلب إليه الجواب عنها ، وقد ضمن أسئلته جميع معارف عصره المشكلة، سواء فى المنطق والفلسفة ، أم فى الكيمياء والصنعة، أم فى الإنسان والحيوان ، أم فى تاريخ العرب وتاريخ غيرهم من الأمم ؛ وقد أكثر فيها من الخرافات والأساطير .

وطبعت هذه الرسالة مع « رسالة فى مناقب الترك » و « رسالة فى فخر السودان على البيضان » ، بليدن سنة ١٩٠٣ ، ثم بمصر ضمن « مجموعة رسائل » سنة ١٣٢٤ هـ ، ثم بمصر أيضاً سنة ١٩٣٣ فى « رسائل الجاحظ » .

ا – قيمتها العلمية

تتجلى لنا فى هذه الرسالة سعة اطلاع الجاحظ . فقد استقى معلوماته فيها من تاريخ العالم عموماً وتاريخ العرب وأساطيرهم خصوصاً ، ومن القرآن والحديث ، ومن كتب الفلسفة والعلوم اليونانية والفارسية وغيرها . وقد ذكر المؤلف فى رسالته أهم القضايا الفلسفية والعلمية والتاريخية ، فعرض لمشكلة المعرفة ورأى أن « الخطأ كثيرٌ غامرٌ ومُستولٍ غالبٌ ، والصواب قليلٌ خاص ، ومقموعٌ مُستخَفٌ » ، وأن الحواس تخطئُ وتُضلّ : « لَعمرى إن العيون لَتُخطئُ

---

(١) طالع المنتخبات ص ٩٦ .

(٢) عاياه : ألقى عليه كلاما لا يهتدى لوجهه .

وإنّ الحواس لتكذبُ ، وما الحُكم القاطع إلا للذهن ، وما الاستبانةُ الصحيحةُ إلاّ للعقل . . .» وَعرضَ لقضية أصل الإنسان وما بينه وبين القرد من تشابه ، وقضية الألوان فقال : « وخبرنى عن لون ذنب الطاووس ما هوَ ، أتقولُ بأنه لا حقيقة َله ُ وإنما يتلونُ بقدَر المقابلة ، أم تقولُ إنّ ُهناكَ َلوناً بعينه والباقى َتخييلٌ » . وَعرض لانتقال الصوت ، وللمد والجزر وأثر القمر فيهما « فإنما يكون الجزر والمدّ على مقادير َجذبه للماء وإرساله له » . وَعرض للمرآة والصورة التى تعكسها أهى خيالية أم حقيقية ؛ وللقمر ومحاقه ، إلى غير ذلك مما ُيدهش .

إلاّ أن هذه القضايا التى يوردها الجاحظ ، لا يحلها فى هذه الرسالة ، وهو يحيل صاحبه فيها إلى سائر كتبه التى تعطيه حلاً لكل شىء وتبرهن على سعة علمه . ثم إن الجاحظ يورد بعض تلك القضايا على سبيل التهكم ، .ومن ذلك قضية إدراك الحواس مثلا ، فهو يذكر أنها تخطىء متهكماً . ومهما يكن من أمر فالرسالة مفعمة بالمعلومات فى مختلف فروع العلم ، مما يجعل للجاحظ محلا رفيعاً فى دولة المعرفة لتلك الأيام .

ب – قيمتها الأدبية الفنية

وإلى جنب قيمة الرسالة العلمية نجد لها قيمة أدبية فنية كبيرة . فقد بلغ الجاحظ من سخريته بابن عبد الوهاب ما لم يبلغه كاتب ولا شاعر فى اللغة العربية من سخريته بشخص من الأشخاص .

أما أسلوبه الهجائى فلم يكن عن طريق السب والشتم ، بل عن طريق التهكم والسخرية اللاذعة . وهو يعمد فى سخريته إلى المفارقات والمتناقضات مستعيناً على ذلك بضروب من الجدل والاحتجاج والحوار ، وضروب من السفسطة والمغالطة والمقابلة بين الحقائق بعضها وبعض ، أو المقابلة بين الرجل وأشياء أخرى .

فبواسطة المفارقات والمتناقضات استطاع الجاحظ أن يشوّه جسم ابن عبد الوهاب وعقله ، ويصوّره لنا تصويراً « كاريكاتورياً » مضحكاً ، فيقول مثلا : « ومن غريب ما أعطيتَ وَبديع ما أوتيتَ أنا لم َنرَ مقدوداً واسع الجُفرة(١)

---

(١) الجفرة : جوف البطن وما وسع البطن والجنبين .

غيرك ، ولا رشيقاً مستفيضَ الخاصرة سواك ! فأنتَ المديدُ ، وأنتَ البسيطُ ، وأنت الطويلُ وأنتَ المتقاربُ . فيا شعراً جَمعَ الأعاريض[1]، ويا شخصاً جَمعَ الاستدارةَ والطولَ » .

ويأخذ الجاحظ بالحوار والجدل فيتسع فى فكرة الطول والقصر اتساعاً شديداً ، فيقف تارة فى جانب القصر فيحتج له ، ويقفُ تارة فى جانب الاعتدال ، وقد يقف فى جانب الطول ، ويدلى فى كل ذلك بالحجج والبراهين كأنه يناقش مسألة علمية ، وكأنى بالجاحظ ، على حدّ « قول شوقى ضيف » : «أحال أحمد بن عبد الوهاب إلى مشكلة من مشاكل الاعتزال أو قل إلى مشكلة من مشاكل الفلسفة . . . إذ يتناوله مرة بالطول ومرّة بالعرض ، وهو أثناء تناوله يمدّه تارة ، ويقصره تارة أخرى ، وتارة ثالثة يبعجه[2] فى مناظر تستخرج منا الضحك على ما يصنع بصاحبه من تشويه » .

وهو يُكثر فى كل ذلك من السفسطات ، فيأخذ بحجج وأقيسة غير صحيحة ، وهو عالم بعدم صحتها ، فيفصلها كالمؤمن بها ، ضاحكاً فى دخيلته من كلامه ، مثيراً معه الضحك . وهكذا برهن الجاحظ فى هذه الرسالة عن فنّ رفيع ، ومقدرة فلسفية عجيبة ، وبيان شحذته الثقافة ، ولباقة فى الحديث نادرة ولكن حديثه كثير التكرار والاستطراد .

كتاب البيان والتبيين

ا – ما هو

هو كتاب فى الأدب من آخر ما ألف الجاحظ ، يتضمن مختارات من الأدب من آية قرآنية أو حديث أو شعر أو حكمة أو خطبة، ممزوجة بما له من آراء فى مسائل مختلفة . قدّمه الجاحظ إلى القاضى أحمد بن أبى دُؤاد . وزعم ياقوت أن المؤلف وضع من هذا الكتاب نُسختين كانت الثانية منهما أصح وأجود . وقد طُبع الكتاب فى مصر سنة ١٩٢٦ فى ثلاثة أجزاء .

(١) المديد والبسيط والطويل والمتقارب أسماء لبعض بحور الشعر . والأعاريض جمع عروض وهى الجزء الأخير من الشطر الأول من البيت، فيتلاعب الجاحظ بهذه الألفاظ فى معنييها مورياً متهكماً .

(٢) بعج البطن : شقه .

ب – أقسامه

تشيع فى هذا الكتاب ، كما فى سائر كتب الجاحظ ، فوضى فى التأليف ، لا نستطيع معها حصر موضوعاته فى أقسام متسلسلة ؛ فسنكتفى بإيراد خلاصة ما فى أبواب الكتاب من موضوعات . فالجاحظ يمزج فى كتابه علوم البلاغة بالأدب والتاريخ .

أما ما يرجع إلى البلاغة فكلام على ماهية البلاغة ، وعلى نعمة الفصاحة ، ثم على عيوب اللسان والعىّ(١) ، كاللحن(٢) ، واللُّكنة(٣) ، والفأفأة(٤) ، والتمتمة(٥) ، والتشديق(٦) ، والتقعير(٧) ، والتقعيب(٨). ويلحق بالبلاغة أيضاً الكلام على الخطابة وعيوب الخطيب من نحنحة(٩) وسعلة ، والأسنان وعلاقتها بالخطابة . ويلحق كذلك بالبلاغة ما يرجع إلى موسيقى الكلام من حروف وألفاظ متنافرة ، ومن سجع وما إلى ذلك .

وأما ما يرجع إلى الأدب فإيراد الكثير من كلام العرب فى العهد الراشدى والأموى والعهد العباسى : من شذرات مأثورة منتقاة ومن خطب بليغة . أما ما يرجع إلى التاريخ فكثير من أخبار الخطباء والعلماء والأمراء والكهان والنساك وغيرهم .

ج – قيمته التاريخية

فى هذا الكتاب تظهر نزعة الجاحظ العربية ، فهو يرد على الشعوبية ،

---

(١) العى : الحصر فى المنطق أى عدم الإفصاح .
(٢) اللحن : الخطأ فى الإعراب ومخالفة وجه الصواب .
(٣) اللكنة : الثقل فى اللسان .
(٤) الفأفأة : الإكثار من الفاء فى الكلام والتردد فيها .
(٥) التمتمة : التعجيل فى الكلام من غير إفهام .
(٦) التشديق : هو أن يلوى المتكلم شدقه للتفصح .
(٧) التقعير : إخراج الكلام من الحلق .
(٨) التقعيب : إخراج الكلام من قعر الحلق .
(٩) النحنحة : تردد الصوت فى الصدر .

ويكثر من إيراد ما للعرب من مظاهر البلاغة . فهو فى موقف معاكس لزعماء الثورة التجديدية ، وهو مع ذلك يضيف فى كتابه إلى الثقافة العربية الواسعة عناصر مختلفة مما تقدمه الثقافات الأخرى اليونانية والفارسية والهندية وغيرها ، حتى ليمكننا القول إن كتابه مزاج من ثقافات مختلفة تغلب عليه الثقافة العربية ، فهو يعرض آداب العرب والفرس ، وحكَم الهنود ، ونصائح اليهودية والمسيحية ، وهو يتكلم على مذهب التناسخ(١) ، وينقل أقوالا لداود والمسيح ، ويذكر عادة الرهبان فى اتخاذ العصا وعادة الجاثليق(٢) فى اتّخاذ القناع والمظلة والعكاز والعصا ؛ كما يذكر أن للهنود كتباً فى الحكم والأسرار ، وأن لليونان منطقاً يُعرف به الخطأ من الصواب ، إلى غير ذلك من المعلومات الواسعة .

د – قيمته الأدبية

لا شك أن كل فصل من فصول الكتاب فوضى لا تُضبط واستطراد لا يُحدّ ، فالجاحظ لا يرعى للوحدة التأليفية نُظماً ولا يُقيم لها وزناً ، إلاّ أن للكتاب قيمة حقيقية جعلت له محلا خاصاً ما بين أصول فنّ الأدب وأركانه حتى قال ابن خلدون : « سمعنا من شيوخنا فى مجالس التعليم أن أصول فن الأدب وأركانه أربعة دواوين ، وهى : أدب الكاتب لابن قُتيبة ، وكتاب الكامل للمبرّد ، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وكتاب النوادر لأبى على القالى ، وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع عنها »(٣) .

---

(١) « التناسخ » : مذهب القائلين بانتقال الروح من شخص إلى شخص ثواباً أو عقاباً وبأن الجنة والنار فى هذه الأبدان .

(٢) الجثليق والجاثليق : متقدم الأساقفة ، جمعه : جثالقة .

(٣) « مقدمة ابن خلدون » ص ٥٥٣ طبعة بيروت .

كتاب البخلاء

ا – ما هو

هو كتاب طريف جمع فيه الجاحظ أخبار البخلاء و « المقتصدين » ، فصوّر حالاتهم المختلفة كما شاهدها أو بلغه خبرها ، مورداً طرائف مشاهيرهم ، متنادراً بمُلَح[1] البخلاء من العلماء والأدباء ، مثبتاً ما يلحق ذلك من مناظرات بين الكرَم والبخل ، وغير ذلك من الفوائد عن آداب العرب وعاداتهم فى مآدب الضيافة . وقد صدّر الكتاب برسالة سهل بن هارون فى البخل . طُبع كتاب البخلاء مراراً ، وكان أول من طبعه المستشرق فان فلوتن Von Vloten وذلك فى ليدن سنة ١٩٠٠ ثم طبع بمصر ثم بدمشق سنة ١٩٣٨ . وفى سنة ١٩٤٧ تولى طه الحاجرى إصدار طبعة علمية جديدة للكتاب .

ب – الباعث على وضع الكتاب

يذكر لنا الجاحظ فى مقدمة كتابه أن ما حمله على وضعه هو الفائدة التى أدّاها كتاب له آخر عنوانه : « تصنيف حِيَل لصوص النهار وتفصيل حيل سُرّاق الليل » ، فقد سدّ به الناس كل خلل وحصنوا به كل عورة ؛ ويذكر أن أحد أصدقائه سأله أن يُفصّل « نوادر البخلاء واحتجاج الأشحّاء ، وما يجوز من ذلك فى باب الهزل ، وما يجوز منه فى باب الجد » ليجعل الهزل مُستراحاً ، والمزاحة جَماماً .

ويذكر الجاحظ أن الذى ساعده على توفير مادة الكتاب « مُلح الحِزامىّ واحتجاج الكندىّ ، ورسالة سهل بن هارون ، وكلام ابن غزوان ، وخطبة الحارثىّ ، وكل ما حضره من أعاجيبهم وأعاجيب غيرهم » واحتجاجهم للبخل ، وشذوذ البخلاء فى تفكيرهم ، إلى غير ذلك مما لم يكن بُدّ من تقويمه وتوضيحه ، حتى يكون من الكلام فائدة للبصير ، ودرس للبيب .

---

(١) الملح جمع ملحة : ما لذ واستملح من الأحاديث .

ج – مضمون الكتاب

أراد الجاحظ أن يفتتح الكتاب بنظرة عامة على نفسية البخلاء جعلها مقدمة بين يدى موضوعه، « فهو يعجب شديد العجب ممن قد فطن لبخله، وَعرف إفراط شحه، وهو فى ذلك يُجاهد نفسهُ ويُغالب طبعهُ، وإربما َظن أنْ قدْ فطنَ َله ُ وُعرف ما عنده، َفموهَ َشيئاً لا َيقبلُ التمويه، ورقعَ َخرقاً لا يقبلُ الرّقعَ، فلو أَنّهُ، َكما فطنَ لعيبه وفطن لمنْ َفطنَ َلعيبه، َفطن لضعفه عن علاج َنفسه . . . . وَعن استرجاع ما َسلفَ منْ عاداته، . . . َلترك َتكلف ما لا يستطيعهُ ... » . والجاحظ يذكر، فضلاعن تمويه البخلاء، فطنتهم لعيوب غيرهم، ويقول: « َفما بالهُ (البخيلُ) يفطنُ لعيوب الناس إذا أطعموه، ولا يفطنُ لعيب نفسه إذا أطعمهمْ، وإن كان عيبه مكشوفاً، وعيبُ َمنْ أطعمهُ مستوراً » .

وبعد هذه المقدمة يُثبتُ الجاحظُ رسالة سهل بن هارون فى البخل وفيها رُدود الرجل على بنى عمه من آل راهيون الذين ذموا مذهبه فى البخل وتتبعوا كلامه فى الكسب .

ثم ينتقل الجاحظ إلى موضوع كتابه فيبدأ بقصة أهل خراسان ولا سيما أهل مرو، وإذا البخل فى أهل مرْو َطبعٌ، وإذا ديوكهم نفسها َتسابُ الحبَّ من مناقير الدّجاج . ويُتبع قصة أهل خراسان بقصة أهل البصرة من المسجديّين، وقصص زبيدة بن حميد الصوفى، وليلى الناعطية، وأحمد بن خلف، وخالد بن يزيد، وأبى جعفر، والحزامىّ، والحارثىّ، وغيرهم .

ثم يُثبتُ الجاحظ رسالتين إحداهما من أبى العاص إلى الثقفىّ فى ذمّ البخل ومدح الكرم، والأخرى جواب ابن التوأم على رسالة الثقفىّ فى إظهار مفاسد البذل وما إلى ذلك .

ويختم كتابه بكلام على أطعمة العرب .

د – الكتاب ودراسة الأخلاق

أول ما يلاحظ فى هذا الكتاب أنّ صاحبه قصر همّه على ناحية واحدة

من نواحي الأخلاق هي البخل ، وأنه مع ذلك أنشأ كلاماً طويلا مما يدل على سعة إدراك الرجل ، ودقة ملاحظته لأعمال الناس التي تُخبر عن نفسيتهم وأميالهم ، والتقاطه لأدقّ حركات البخلاء ، ولكن الأسلوب في كلامه لم يكن أسلوب مَنْ يقدّم في أشخاصه رموزاً إلى كل منْ أحبّ المال وعلق المادّة ، ومُثلا شاملةً عامة ؛ فالجاحظ يعرض علينا قصصاً وروايات متتابعة من غير ما ترتيب فنيّ يكوّن وحدة تأليفية .

وليست غاية الجاحظ في كتابه الهجاء لمجرد الهجاء ، وإن حوى كلاماً على الكرم والبخل وحجج هذا وذاك ، إنما غايته إصلاح تلك الفئة من الناس التي اتخذت البخل مذهباً تؤيده عن عقيدة أو عن تمويه . وهو ، إن ذمّ البخل وأوضح مفاسده ، لا يغفل عن تحسين الاقتصاد . وأشخاص الجاحظ في كتابه أحياء يتحركون ، ويتكلمون بلغة هي لغتهم ؛ ويكشفون لنا عن أنفسهم . وهم عادة أصحاب جدل ومنطق ، يلجأون إلى البراهين المختلفة والسفسطات(١) التي تضحكنا من حيث تقنعهم أو تظهر أنها تقنعهم .

وبخلاء الجاحظ هم من « طيّاب البخلاء » لا تشمئز النفس منهم ولا تُمل قراءة أخبارهم ، فقد عرف الجاحظ أن يبث فيهم من خفة روحه ، وأن يجعل نكته على لسانهم ، ويبرّئهم من التعدّي الذميم على مال غيرهم مهما اشتد حرصهم على ما لهم ؛ لا بل يوضح من اقتصادهم أحياناً ما يُحمد وما يعتمد عليه في تدبير المنزل(٢) .

د — الفائدة التاريخية

يُطلعنا الكتاب على ناحية من نواحي المجتمع العباسي ولا سيما مجتمع البصرة وخراسان ؛ ويفصّل لنا طرق العيش في تلك الفئة من الناس ، وأساليب كلامها ، ثم يمتدّ إلى كثير من عادات العرب ومأكلهم وأمثالهم وأخبارهم ، وإلى بخل الروم ، وغش الفرس ، وغير ذلك مما يطول سرده .

---

(١) السفسطات جمع سفسطة : الاستدلال والقياس الباطل يقصد به تمويه الحقائق .

(٢) طالع المنتخبات ص ٧٠ — ٨٠ .

كتاب الحيوان

ا – ما هو ، وما غاية المؤلف من وضعه

يشتمل هذا الكتاب على وصف طبائع الحيوان ، وقد أودعه صاحبه كل ما شاء إيداعه من الحكمة والأدب والظرف ، ودوّن فيه كلّ ما تفرق فى كتب العلم والأدب ، وما انتشر على أفواه الناس من الأشعار والأقوال ، والأحكام والأسماء ، عن الحيوان وعلاقتها ببنى الإنسان . وذكر الجاحظ فى مواضع عدة من الكتاب ما فى طبائع الحيوان من الحجج على حكمة الله العجيبة وقدرته الباهرة .

وطُبع الكتاب مراراً فى عدّة أجزاء تختلف عدًّا باختلاف طبعاته . طبع بمصر فى سبعة أجزاء سنة ١٩٠٧ ، ثم طبعة أخرى أنيقة حقق الكتاب فيها وشرحه عبد السلام محمد هارون سنة ١٣٥٧ هـ . (١٩٣٨ م) .

ب – مصادر المؤلف فى وضع كتاب الحيوان

إن المراجع التى لجأ إليها الجاحظ فى وضع كتابه الحيوان كثيرة حتى ليصعب الإتيان على ذكرها كلها . فقد برهن المؤلف فى هذا الكتاب على معارف واسعة ، واطلاع نادر على جميع الثقافات المعروفة لزمانه من عربية ويونانية وفارسية وهندية ، وعلى جميع الديانات وتعاليمها من مانويّة وزرادشتية ودهريّة ، ويهودية ونصرانية وإسلامية ، وعلى جميع الفرق والنزعات .

أما مصادر الجاحظ الأجنبية فهى كتب أرسطو أولا [1] ، ولأرسطو كتاب فى الحيوان يقع فى تسع عشرة مقالة ، نقله ابن البطريق ، ولخصه غيره . ولم يقتصر الجاحظ على أرسطو بل نقل أيضاً عن أقليمون صاحب الفراسة فى الكلام على الحمام ، وعن جالينوس فى ما يصلح له لحم الضبّ ، وفى معارف البهائم والطير . ونقل عن الفرس وتكلم على أساطيرهم ونيرانهم . ونقل كذلك عن اليهود والنصارى أموراً كثيرة تتعلق بديانتهم .

---

(١) طالع المنتخبات ص ٥٦ .

ج – مضمون الكتاب

لم يقتصر الجاحظ فى كتابه على طبائع الحيوانات ، بل شطّ عن موضوعه وغايته ، وأخرج كلامه مخرج الشمول العامى والأدبى ، فضمنه معلومات واسعة فى الحيوان وغير الحيوان ، ومزج الجدّ بالهزل ، والعلم بالأدب ، والفكاهة بالمجون ، مزجاً غريباً[١] .

وقد جعل الجاحظ كتابه فى سبعة أجزاء :

الجزء الأول : يتضمن مقدمة ردّ فيها الجاحظ على من انتقد كتبه التى ذكر منها ما يزيد على الأربعين كتاباً ، ثم انتقل إلى تفصيل فضل الكتاب وضرورة اقتنائه . وما إن انتهى من مقدمته حتى انتقل إلى باب الخصاء ومنافعه وجعله توطئة للكلام على الحيوان الذى ذكر منه الكلب والديك .

الجزء الثانى : يتضمن تتمة الكلام على الكلب .

الجزء الثالث : يتضمن كلاماً على الحمام وطبائعه ، وعلى الذباب ، والغربان وغيرها . وفيه استطرادات إلى صدق الظنّ والفراسة والجنون .

الجزء الرابع : يتضمن كلاماً على الذّرة ، والنمل ، والقرد ، والخنزير ، والحيات ، والظليم[٢] ، ومن استطرادات هذا الجزء الكلام على النيران بأنواعها : ما كان منها للعرب وما كان منها للعجم ، وما كان للديانات وما كان لغير الديانات .

الجزء الخامس : يُقسم هذا الجزء قسمين : يتضمن القسم الأول تتمة الكلام على النار ، وتفسير بعض الآيات ، ثم ما قيل من مديح فى النصارى واليهود والمجوس والأنذال وصغار الناس . ويتضمن القسم الثانى كلاماً على بعض الحيوان كالفأر والجرذان والسنانير وغيرها ، وعلى الفرق بين الإنسان والبهيمة ، والإنسان والسبع .

الجزء السادس : يتضمن تفسيراً لقصيدة البهرانىّ فى الحيوان ، ولقصيدتى بشر بن المعتمر ، وكلاماً على الثأر عند العرب وعلى الجبان ، وإلى جنب ذلك يتكلم على بعض الحيوان كالهدهد والتمساح والأرانب وغيرها .

(١) طالع المنتخبات ص ٨١ – ٩٥ .

(٢) الظليم : الذكر من النعام .

الجزء السابع : يتضمن هذا الجزء برهاناً على ما رمى إليه الجاحظ من وضع الكتاب : أعنى إظهار حكمة الله وقدرته الباهرة ، ففيه تبيين لما امتاز به الحيوان من الحكمة العجيبة ، وما ألهمه الله به من المعرفة ووهبه من الجبن والجرأة ، وأشعره من الفطنة بما يحاذر به عدّوه . ولا يخلو هذا الجزء أيضاً من الكلام على بعض الحيوان كالفيل والزرافة وغيرهما .

د – قيمته الأدبية

لن نبحث هنا فى فن الجاحظ الكتابى لأننا سنفرد له محلا خاصاً وإنما نقصر كلامنا على أسلوب الجاحظ التأليفى فى كتاب الحيوان فهو يقول فيه : « متى خرجَ (القارئ) من آى القرآن صارَ إلى الأثر ، ومتى خرجَ من أثر صار إلى خبر ، ثمّ يخرج من الخبر إلى الشّعر ، ومن الشعر إلى نَوادر ، ومن النوادر إلى حِكَم عقلية ومقاييس سَداد ، ثمّ لا يترك هذا الباب ولعله يكون أثقلَ ، والمَلال إليه أسرَعَ ، حتى يُفضى إلى مَرح وفكاهة وإلى سُخف وخرافة ، ولستُ أراهُ سُخفاً . » .

وهو يقول أيضاً : « إنى أُوَشّحُ هذا الكتابَ بنوادرَ من ضروب الشعر ، وضُروب الأحاديث ، ليخرجَ قارئه من باب إلى باب ، ومن شكل إلى شكل ، فإنى رأيتُ الأسماع تمل الأصواتَ المطربة والأغانى الحسنة ، والأوتارَ الفصيحةَ إذا طال ذلكَ عليها ، وإذا كانت الأوائلُ قد سارتْ فى صغار الكتب هذه السيرة ، كانَ هذا التدبير لما طالَ وكثرَ أصلح ، وما غايتنا من ذلكَ كله إلاّ أن تستفيدوا خيراً » .

فالجاحظ من ثم أستاذ يريد أن يلقى على العالم العربىّ دروسه ، وهو يريد أن يستفيد سامعوه خيراً ، فيجعل همه كله فى إساغة ما يقول ، وإرساله على الطرق التى تبعد الملل ، حتى تنفتح له القلوب ، وتتفهمه العقول ، وهو من ثمّ يرى التنقل من موضوع إلى موضوع ، والاستطراد ، ومزج الجدّ بالهزل ، خير طريق إلى الأفهام ، ولذلك نراه يخلط دائماً جداً بهزل ، ويسيغ اللقمة الجافة بكثير من الحلوى ، وإن كثر فيها الإحماض والمجون المكشوف .

ذلك أسلوب الجاحظ فى كتاب الحيوان ، وهو يأسف على سلوكه هذا

السبيل ، ولكنه لا يرى مناصاً منه ، فيقول : « وَلولا سُوءُ ظنيّ بمن يُظهرُ التماسَ العلم فى هذا الزمان ويُظهرُ اصطناعَ الكتب فى هذا الدهر لما احتجتُ إلى مداراتهم واستمالتهم ، وترقيق نفوسهم وتشجيع قلوبهم — مع فوائد هذا الكتاب — إلى هذه الرياضة الطويلة وإلى كثرة هذا الاعتذار ، حتى كأنّ الذى أفيدُهُ إياهم أستفيدُهُ منهم ، وحتى كأنّ رغبتى فى صلاحهم رغبةُ مَنْ رَغب فى دنياهم » . والجاحظ يعترف بأنه عانى فى هذه الطريقة أكثر مما قد عانى لو كتب كتاباً فى موضوع واحد من غير استطراد .

ليس للكتاب إذن من وحدة تأليفية ، فالمؤلف يراعى فيه هوى قارئيه لا قواعد المنطق والعقل ؛ فكان فيه عالماً وأديباً يرضى العلم والبلاغة . كما كان معتزلياً يرغب فى الجدل والمناظرة ، حتى إذا لم يجد مَن يناظره خلق شخصين يتناظران فى مسألة يريد الكلام فيها ؛ فإذا تكلمّ على الكلب والديك مثلا خلق لكل منهما صاحباً يذكر فضائله وفوائده ، ويستشهد على ما يقول بالأخبار القديمة والأقاصيص ، وبما ورد فى التوراة والإنجيل والقرآن والحديث ..

هـ – قيمته التاريخية

من استقراء موضوعات الكتاب تتجلّى لنا قيمته التاريخية ، فهو خزانة معلومات كثيرة الأصول والفروع ، تتناول تاريخ العرب وغير العرب ، وثقافاتهم ، وعاداتهم ، ودياناتهم وأحوالهم الاجتماعية مما يؤلف مجموعة واسعة من الحقائق التى أعمل فيها الجاحظ عقله وروحه النقديّة ، وأبرزها بقدر ما استطاع من تدقيق وتحرّ .

و – قيمته العلمية

اختلف النقاد فى قيمة الجاحظ العلمية ، فمنهم من عدّ الرّجل عالماً من أكبر العلماء ، ومنهم من حطّ من شأنه العلمى . والحقيقة أن الجاحظ عالم وإن غلبت عليه الصبغة الأدبية ، ولكن علمه لا يخلو من أضاليل لضعف الوسائل العلمية لأيامه . فقد تناول الموضوعات العلمية واتبع أصول العلم فى التحقيق ، يحفزه على ذلك روحه المعتزلية التى تجعل العقل فى أساس البحث كما يحفزه مثل أستاذه النظّام أبى الروح العلميّ فى ذلك العهد وحامل لواء العقل .

وموضوعات الجاحظ العلمية هى ما أدركناه فى دراسة أبواب الكتاب . وقد كان الكتّاب إلى ما قبل ظهور الجاحظ يصرفون همتهم إلى الاختصاص بالضرب الواحد أو الضربين من أنواع العلوم ، أما الجاحظ فلم يتخصص بل شاء أن يكون (دائرة معارف) تحيط بأكثر ما عُرف من علوم الإنسانية وآدابها حتّى عهده ، وأن يزيد عليها . وفى كتاب الحيوان أكبر شاهد على ذلك .

وأصول تحقيق الجاحظ ، هى الأصول العلمية(١) . وقد قال فى مقدمة كتابه :

« هذا كتاب تستوى فيه رغبةُ الأمم ، وتتشابهُ فيه العربُ والعجمُ ، لأنهُ وإنْ كانَ عربياً أعرابياً ، وإسلامياً جماعياً ، فقد أخذَ من طرف الفلسفة ، وجمع معرفة السماع وعلمَ التجربة ، وأشرك بين علم الكتاب والسُّنة ، وبين وجدان الحاسة وإحساس الغريزة » .

فهو إذن يعتمد الحواسّ والعقل فى دَرْك الأمور . فالعنصر الأول من عناصر تحقيقه هو المعاينة يضم إليها التجربة والفرض والمقابلة والتصنيف . وكل قول فى نظره « يكذبهُ العيانُ فهو أفحش خطأ ، وأسخف مذهباً ، وأدلُّ على معاندة شديدة ، أو غفلة مفرطة » .

أما التجربة فكان الجاحظ يعمد إلى طرق مختلفة منها : فتارة يقطع أعضاء الحيوان ، أو يلقى على الحيوان ضرباً من السمّ ، وتارةً يذبح الحيوان ويفتش جوفه وقانصته »(٢) وطوراً يجمع أضداد الحيوان فى إناء ليعرف تقاتلها ، وطوراً آخر يلجأ إلى إحدى موادّ الكيمياء ليعلم تأثيرها فى الحيوان .

وأما معرفة السماع فكان الجاحظ يلجأ إليها ، ويتردد على أهل المعرفة من زمانه ، ويعمد إلى كتب أرسطو وغيره . ولكنه كان يعمل فى ذلك تمييزه ، فيناقش ويحاول تحقيق ما يسمع فتارة يسمع الخبر فيثبته كما هو ، وتارة ينفى الشبهة عمن يأتيه بالخبر ، وحيناً يكذبه ، وحيناً آخر يعجب لقوله إذا لم يجد سبيلا إلى التحقيق .

والجاحظ يجمع إلى معونة الحواسّ معونة العقل ، ويقول : « فلا

---

(١) طالع المنتخبات ص ٥٣ — ٥٨ .

(٢) القانصة للطير كالحوصلة للانسان .

تذهب إلى ما تريك العينُ ، واذهب إلى ما يُريك العقلُ ، وللأمور حُكمان : حُكم ظاهرٌ للحواسّ وحُكمٌ باطنٌ للعقول ، والعقلُ هو الحجةُ » . وبهذا وذاك كان الجاحظ تلميذاً للنظام الذى كان يعتبر الشك أساساً للبحث ، والذى عمد إلى التجربة واستخدم المنطق فى البحث عن الحقائق . فكان الجاحظ يجعل الشك سبيلا إلى اليقين ، ويقول : « اعرف مواضع الشك والحالات الموجبة لهُ لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة لهُ » . ولم يكن الشك عنده هياماً بالشك بل كان طريقاً إلى المعرفة .

والجاحظ يضيف إلى الشك النقد العلمى ، وهو مغرم بالتنبيه على الخرافات والنيل من أصحابها . وقد نال بنقده طائفة من العلماء ومنهم أرسطو . فأخذ على هذا الأخير أنه لم يعتمد فى تحقيقه على العيان والسماع والامتحان ، وأنه إذا تكلم ، في بعض الأحيان ، على حيوان لا يستوفى عجائبه . ولم يكن نقد الجاحظ رغبة فى النقد بل كان طريقاً إلى دَرْك الحقيقة .

* * *

تلك قيمة الجاحظ العلمية كما تتجلى لنا من كتاب الحيوان . إلا أن علم الجاحظ يعتوره كثير من الأوهام والأضاليل التى نجدها عند سائر العلماء الأقدمين. وقد فات الجاحظ روح الترتيب فى ما خبره وعاينه ودوّنه ، كما فاتته قدرة العالم على التعميم واستنباط القوانين العامّة ، والتمكن من إنشاء المقاييس العلمية .

٢ ــ فن الجاحظ

ليس الجاحظ بالرجل الفسيح الخيال ، ولا هو برجل العاطفة التى تستبد بجميع كيانه ، بل إنما هو رجل الاعتزال ، أى رجل العقل والجدل ، يتطلب الحقيقة بكلّ قواه ، ويبحث طويلا فى سبيل الحصول عليها ، ثم يسعى جهده للتعبير عنها تعبيراً بيناً يظهر جميع دقائقها قريبة إلى الأفهام .

ولأجل ذلك نرى الجاحظ يعدل عن أساليب المجاز ما استطاع ، وإن عمد إلى شيء من التشبيه والاستعارة فما ذلك للزخرف وتطلّب الصنعة ، ولكنه لوضوح الإبانة بطريقة واقعية محسوسة . ومن ثم فاستعاراته وتشبيهاته بعيدة كل

البعد عن التعقيد والإغراب ، قريبة كل القرب من الأفهام . قال يصف حية رمال بلعنبر : « . . . غمست هذه الحية ذنبها فى الرمل ، ثم انتصبت كأنها رمحٌ مركوزٌ أو عود ثابتٌ » . فالتشبيه حسّىّ ، سهل المأخذ لا يحتاج إلى تفكير ولا إلى تخيل عميق .

ثم إن الجاحظ — شأن الأستاذ الحاذق — يراعى أبداً مقتضى الحال . فهو خبير بنفسية الإنسان ، ومفتنٌّ ماهر ، لا ينسى من يضع لهم كتبه ، ولا يغفل عن الأحوال المكانية والزمانية . فتراه لذلك يتحدث إلى قارئيه بأسلوب طبيعى بعيد عن الصنعة والتمويه ، فترى عبارته تمتد تارة وتنقبض أخرى . تُرسل تارة إرسالا من غير تمويج ولا تقطيع ، وتُقطّع تارة أخرى تقطيعاً موسيقياً ، وموسيقاها هى موسيقى التقطيع الطبيعى الماهر ؛ وترى أسلوبه ينزع نزعة الحياة الحرّة الطليقة التى تروق أبناء العصر ، ويميل عن جفاف الأسلوب العلمى المجرد ، ويسترسل فى الاستطراد والاستشهاد والجدل ، ويعمد إلى الهزل فى مواطن الجدّ ، فإذا نفس الكاتب الخفيفة الظلّ ، المطبوعة على الدعابة والمزح ، تتراءى فى كل حال وكل مقال ؛ وإذا جفاف العلم يلينه السرور ، وإذا السرور تبعثه نادرة غريبة ، أو فكرة لطيفة ، أو ترحم هازئ ، أو ما إلى ذلك من ضروب الهزل . ولا شكّ أن ذلك الاستطراد وما يتبعه من ضروب مراعاة الأحوال يلحق ضرراً بالوحدة التأليفية ، والمنطق العلمى ، ولكنه يروق أبناء العصر ، ويروّج المصنفات ، ويُفهم الحقائق ويفسرها ، والجاحظ لا يطلب غير ذلك .

ثم إن لغة الجاحظ ، هى اللغة التى يقتضيها العقل ويطلبها التعبير عن الحقيقة . فالجاحظ يرمى إلى الإفهام ، وإلى استعمال الألفاظ التى تجلو المعانى عن طريق الحقيقة فهو يقول : « ليس الكتابُ إلى شىء أحوج منه إلى إفهام معانيه حتى لا يحتاج السامع لما فيه ، إلى الروية ؛ ويحتاجُ من اللفظ إلى مقدار يرتفعُ به عن ألفاظ السفلة والحشوة[1] ، ويحطه عن غريب الأعراب ووحشىّ الكلام» .

فمذهبه من ثم واضح ؛ وقد جرى عليه ، فكانت ألفاظه دقيقة ، واضحة الأداء ، واقعية حسية ، بعيدة عن الخشونة والغرابة ، يُحسن تصيدها ، فيقدر

---

(١) سفلة القوم : أسافلهم . والحشوة منهم : أرذالهم .

اللفظة بجرْسها ورنتها وما ينتظر من تأثير توقيعها وتلحينها إذا قُرنت إلى أختها ، ويُميز الثقيلة والخفيفة ، والمأنوسة والوحشية ، فيختار ما يؤدى معناه حق الأداء وينزله فى منزله . ولا تعصيه كلمة مهما دقّ موضوعه ، ولا يطوى لسانه على معنى فى قلبه لا يتسنى له إبرازه بالنطق أو تمثيله باللفظ . وكان الجاحظ نحاتاً وبنّاء فى آن واحد ، ينظر إلى شيئين فى ألفاظه : الدقة والموسيقى . ومن ثم شاعت العذوبة فى كلامه . إلا أن تلك السهولة وتلك الدقة لا تخلوان أحياناً من غموض ينجم عن التباس الضمائر فلا يعرف إلى من ترجع لتعاقبها ؛ ويعمد الجاحظ أحياناً إلى ألفاظ أعجميّه وعامّية مراعاة لمقتضى الحال .

ومهما يكن من أمر فالجاحظ مصوّر بارع ، يصوّر بجمله وألفاظه ، فيذكر الدقائق والتفاصيل بأوضاعها لا بسلسلة تصويرات أو تشبيهات أو ما إلى ذلك ، وهو فى كل ذلك رجل الواقع لا يحيد عنه فى حال من الأحوال .

٣ ـ منزلة الجاحظ

ا ـ مدرسة الجاحظ الكتابية

يعدّ الجاحظ رأس المدرسة النثرية الثانية فى الأدب العربى ، وقد كان عبد الحميد وابن المقفع رأس المدرسة الأولى . وإن فى أسلوب المدرسة الثانية نزعة إلى الطراوة الملائمة لتقدم الحضارة ، وميلا إلى الإسهاب والإطالة الملائمة للرجل المتحضر ، ورجوعاً إلى العرب والاستقاء من ينابيع أدبهم ، وتكييف أساليبهم ، لتماشى المدنية والثقافة ؛ والشغف بالمنطق كلما دعت إليه الحال .

ب ـ آثار الجاحظ صورة لبيئته

شبّ الجاحظ فى زمن الرشيد ، ونبغ فى عهد المأمون ، وقد امتاز عصره بحرّية الفكر ، فصوّر الجاحظ تلك الحرّية بواقعيتها ، وظهرت فى علمه ، وفى دينه ، وفى أدبه .

أما فى علمه فقد ظهرت فى تحقيقه العلمى ، وفى نقده وشكه وحججه ؛

وأما فى دينه فظهرت فى اعتزاله وتفسيره وتأويله ، وتأسيس كل شىء على العقل ؛ وأما فى أدبه فظهرت فى انطلاق أسلوبه ولغته .

وكما مثل الجاحظ حرّية الفكر فى عصره ، مثل أيضاً نتيجة تلك الحرية وهى مزدوجة : نتيجة حسنة هى ازدهار العلوم العقلية ، ونتيجة سيئة هى الانحلال فى العقيدة والأخلاق. فمثّل الجاحظ فى آثاره تشعب الحركة الفكرّية ، وانطلاق العلوم واتساع الآفاق ، والبحث العلميّ المؤسس على العقل ؛ وقد أخذ من كل علم بطرف ، حتى خاض فى أبواب شتى من الاجتماع والأخلاق ، والتربية والتعليم ، والطبيعة ، والتاريخ الطبيعى ، وفلسفة اللغة ؛ وما إلى ذلك . ومثّل الجاحظ من جهة أخرى الأخلاق والعقائد وأظهر انحلالها فى فئات من أهل عصره ، فصور حيل التجار ، وخزعبلات المتسولين ؛ وسخافات الشبان المتخنثين ، وزندقة المتزندقين ، وما أشبه ذلك من ضروب الفساد .

ج – رواج الجاحظ عند أبناء عصره

كان الجاحظ أستاذاً فى عصره يلقى دروسه على العالم العربى بأسره . وقد لقى رواجاً عظيما لسعة علمه ، وكثرة مؤلفاته ، واعتزاله وجرأته فى النهوض على التقاليد ، تلك الجرأة التى وفّرت له الأعداء والأصدقاء ، ونظره النقدى المُقعَد على المعقول والتجربة ، واتساع آفاق موضوعاته إذ كان كل إنسان يجد فيها ما يروقه ، والتنوع الذى كان يبعد السأم ، وتصوير أخلاق العصر وفئات الناس — وهذا النوع من الأدب كثير الرواج — وأسلوبه السخرى ، ومزجه الجدّ بالهزل ، وتبسيط المسائل العلمية والفلسفية فى أسلوب واضح يصطبغ بالصبغة العربية . وهكذا وجد الناس صلة بينهم وبين ما مثل لهم الجاحظ ، بخلاف ما وجدوا عند ابن المقفع الذى قدّم لهم أدباً وُضع لزمان غير زمانهم وشعب غير شعبهم . وقد أعجب الناس بابن المقفع قبلا لأنهم رأوا فى كتبه شيئاً جديداً لم يكن لهم عهد بمثله ، ولأنها كتبت بلغة سمحة تملأ الصدور جلالا . أما فى هذا العصر فقد آثروا كتب الجاحظ لأنها أكثر استنباطاً ، وأبرز شخصية ، وأوسع مادة ، وأبرع فناً ، وأقرب إلى حياة الشعب .

د ـ أثر الجاحظ فى الأدب العربى

إن شخصية الجاحظ قد استهوت الأدباء فى عصره وبعد عصره ، فكان للرجل أثر كبير فى الأدب العربى . وكان هذا الأثر حسناً من جهة ، سيئاً من جهة أخرى .

كَثُرَ طلاب الجاحظ والمتتلمذون له . فمنهم من لخصوا بعض آثاره كما فعل عبد اللطيف البغدادى (١١٦١ – ١٢٣١ م /٥٥٧ – ٦٢٩ هـ) . الذى لخص كتاب الحيوان فى مؤلف سمّاه « اختصار كتاب الحيوان » ، وكما فعل ابن سناء الملك الشاعر المصرىّ (١١٥٥ – ١٢٥٩م / ٥٥٠ – ٦٥٨ هـ) الذى لخص الكتاب نفسه وسمّاه « روح الحيوان » .

ومنهم من حاكى الجاحظ فى تأليفه ، فحفلت كتبهم بمختلف الموضوعات وحفلت بالاختلاط وسوء الترتيب . ونذكر من هؤلاء ابن قُتيبة (٨٢٨ – ٨٨٩م و ٢١٣ – ٢٧٦ هـ) صاحب « عيون الأخبار » ، وأبا العباس المبرّد (٨٢٦ – ٨٩٨ م / ٢١٠ – ٢٨٥ هـ) صاحب « الكامل » ، وابن عبد ربه (٨٦٠ – ٩٤٠ م و ٢٤٦ – ٣٢٨ هـ) صاحب « العقد الفريد » ، وأبا بكر الصّولى (٩٤٦ م ٪ ٣٣٥ هـ) صاحب كتاب « الأوراق فى أخبار الخلفاء والشعراء » ، والآمدى (٩٨١ م / ٣٧١ هـ) ، وابن الفقيه الجغرافىّ (القرن العاشر) والثعالبىّ (٩٦١ – ١٠٣٨ م ٪ ٣٥٠ – ٤٢٩ هـ) صاحب « يتيمة الدهر » ، والبيهقى (القرن العاشر) صاحب « كتاب المحاسن والمساوئ » والقزْوينى (١٢٠٨ – ١٢٨٣ م / ٦٠٥ – ٦٨٢ هـ) والدّميرى (١٣٤٩ – ١٤٠٥ م / ٧٥٠ – ٨٠٨ هـ) صاحب « حياة الحيوان الكبرى » .

وقد تكون رسالة التربيع والتدوير من عوامل ظهور فن المقامات فى الأدب العربى .

وكيفما كان الأمر ففضل الجاحظ على الأدب العربى فضل جمّ . فقد قرّب الفلسفة والعلوم إلى كل ذهن ، وصاغها صياغة أدبية مزج فيها كلام أرسطو بأشعار الجاهليين ، وأقوال الفلاسفة بأقوال الأدباء ، وجعل اللغة العربية لغة الحياة التى تنطق بكل علم وتعبّر عن كل فن .

الفصل الرابع

منتخبات من آثار الجاحظ

١ ـ آراء الجاحظ في الكتاب والتأليف والترجمة

المؤلِّف المحسود

إنِّي رُبّما ألّفتُ الكتاب المُحْكَمَ المُتْقَن في الدين والفقه والرّسائل والسِّيرة والخطب والخراج والأحكام ، وسائر فنون الحكمة ، وأنسبه إلى نفسي ، فيتواطأ على الطّعْن فيه جماعة من أهل العِلْم ، بالحسد المركّب فيهم ، وهم يعرفون براعته ونصاحته[1] . وأكثر ما يكون هذا منهم إذا كان الكتابُ مؤلَّفاً لملِك معه القدرة على التقديم والتأخير ، والحطّ والرّفْع ، والترهيب والترغيب ، فإنّهم يهتاجون عند ذلك اهتياج الإبل المغتلمة . فإن أمكنَتْهم الحيلة في إسقاط ذلك الكتاب عند السيّد الذي أُلِّف له ، فهو الذي قصدوه وأرادوه . وإن كان السيِّد المؤلَّف فيه الكتاب نحريراً نقّاباً[2] ، ونِقْريساً[3] بليغاً ، وحاذقاً فَطِناً ، وأعجزَتْهم الحيلة ، سرقوا معاني ذلك الكتاب ، وألّفوا من أعراضه وحواشيه كتاباً وأهدوه إلى ملك آخر ، ومَتّوا[4] إليه به ، وهم قد ذمّوه وثلبوه لمّا

(١) النصاحة : الخلوص .

(٢) النقاب : الرجل العلامة ، أو النافذ في الأمور .

(٣) النقريس : الطبيب الماهر المدقق . (٤) مت إليه بحرمة : توصل بقرابة أو دالة .

رأوه منسوباً إلىّ ، وموسوماً بى . وربُمَّا ألَّفتُ الـكتاب الذى هو دونه فى معانيه وألفاظه ، فأترجمه باسم غيرى ، وأُحيله على من تقدّمنى عصرُه مثل ابن المقفّع والخليل وسَلم صاحب الحـكمة ويحيى بن خالد والعتابى ، ومَن أشبه هؤلاء من مؤلّفى الـكتُب ، فيأتينى أولئك القوم بأعيانهم ، الطاعنون على الـكتاب الذى كان أحكم من هذا الـكتاب ، لاستنساخ هذا الـكتاب وقراءته علىّ ، ويكتبونه بخطوطهم ، ويصيّرونه إماماً يقتدون به ، ويتدارسونه بينهم ، ويتأدّبون به ، ويستعملون ألفاظه ومعانيه فى كتبهم وخطاباتهم ، ويروونه عنّى لغيرهم من طلاّب ذلك الجنس ، فتثبت لهم به رياسة يأتَمّ(١) بهم قوم فيه ، لأنّه لم يُترجم باسمى ، ولم يُنسب إلى تأليفى(٢) .

الـكتاب

كان الجاحظ يحب الكتاب حبا جما ، وقد قضى حياته يطالع الكتب ويؤلفها حتى أصبحت جزءاً من ذاته وأطيب لذاته . وها هو ذا يخاطب من انتقد كتبه ويفصل منافع الكتب عموماً ويقول :

ثم لم أرَكَ رضيت بالطعن على كل كتابٍ لى بعينه ، حتى تجاوزتَ ذلك إلى أن عِبتَ وضع الـكتب كيفما دارت بها الحال ، وكيف تُصرف بها الوجوه . وقد كنتُ أعجب من عيبك البعضَ بلا علم ، حتى عِبت الـكلّ بلا علم . ثم تجاوزْتَ ذلك إلى التشنيع . ثم تجاوزتَ ذلك إلى نَصْب(٣) الحرب ؛

(١) ائتم به : اقتدى . وائتمه : اتخذه إماماً .

(٢) من رسالة « فصل ما بين العداوة والحسد » .

(٣) نصب له الحرب : أقامها عليه .

فعبتَ الـكتاب ، ونعمَ الذخر والعُقْدة[١] هو ! ونعم الجليس والعُدَّة ، ونعمَ النشرة والنزهة ، ونعم المشتغَل والحرفة ، ونعمَ الأنيس لساعة الوحدة ، ونعمَ المعرفةُ ببـلاد الغُربة ، ونعمَ القرين والدَّخيل ، ونعمَ الوزير والنَّزيل !

والـكتاب وِعاء مُلِئَ عِلمًا ، وظَرْفٌ حُشِيَ ظرفًا[٢] ، وإناءٌ شُحن مُزَاحًا وجِدًّا ؛ إن شئت كان أبين من سحبان وائل[٣] ؛ وإن شئتَ كان أعيا من باقل[٤] ؛ وإن شئتَ ضحكْتَ من نوادره ؛ وإن شئتَ عجبتَ من غرائبِ فرائده . وإن شئتَ أَلْهتْكَ طرائفُه ، وإن شئتَ أشْجتكَ مواعظه . ومن لك بواعظٍ مُلْهٍ ، وبزاجرٍ مُغْرٍ ، وبناسك فاتِك ، وبناطقٍ أخرس ، وببارد حارّ ! وفى البارد الحارّ يقول الحسن ابن هانى :

قُلْ لزُهيرٍ إذا أنتَحى رشدا   أَقْلِلْ أو أكْثِرْ فَأنْتَ مِهْذارُ
سخنتَ من شدَّة البرودةِ حـــتّى صرْتَ عندى كأنَّك النارُ
لا يَعْجَبِ السامعون من صفتى ،   كذلك الثلجُ باردٌ حارُ

ومن لك بطبيب أعرابى ! ومن لك برومى هندى ، وبفارسى يونانى ! وبقديم مولَّد[٥] ، وبميّت مُمتَّع ! ومن لك بشىء يجمع لك الأول

---

(١) العقدة : ما فيه بلاغ الرجل وكفايته من الرزق .
(٢) الظرف : الوعاء . والظرف : الكياسة والذكاء البارع .
(٣) سحبان : رجل من بنى باهلة يُضرب به المثل فى الخطابة .
(٤) باقل : رجل يضرب به المثل فى العى .
(٥) المولد : خلاف القديم .

والآخِر ، والناقصَ والوافر ، والخفيّ والظاهر ، والشاهِدَ والغائب ، والرفيعَ والوضيع ، والغثّ والسمين ، والشكلَ وخلافَه ، والجنسَ وضِدَّه !

وبعد ، فمتى رأيت بستانًا يُحمل فى رُدن[1] ، وروضةً تُقَلُّ فى حِجْر ، وناطقًا ينطق عن الموتى ، ويُترجم عن الأحياء ! ومن لك بمؤنس لا ينام إلّا بنومك ، ولا ينطق إلا بما تهوى ! آمن من الأرض ؛ وأكتم للسرّ من صاحب السرّ ! وأحفظ للوديعة من أرباب الوديعة ! . .

وقد قال ذو الرُّمّة لعيسى بن عُمَر[2] : « اكتب شعرى ؛ فالكتاب أحبّ إلىّ من الحفظ ! » لأن الأعرابى ينسى الكلمة وقد سهر الشاعر فى طلبها ليلته ، فيضع فى موضعها كلمة فى وزنها ، ثم يُنْشِدُها الناس ، والكتابُ لا يَنْسى ، ولا يبدل كلامًا بكلام .

وعِبتِ الكتاب ، ولا أعلم جاراً أبرّ ، ولا خليطاً أنصف ، ولا رفيقًا أطوع ، ولا معلِّمًا أخضع ، ولا صاحبًا أظهر كفاية ، ولا أقلّ جناية ، ولا أقلّ إملالًا وإبرامًا ، ولا أحْفَل أخلاقًا ، ولا أقلّ خلافًا وإجرامًا ، ولا أقلّ غيبة ، ولا أبعدَ من عَضِيهة[3] ، ولا أكثرَ أعجوبة وتصرُّفًا ، ولا أقلّ تصلُّفًا وتكلّفًا ، ولا أبعد من مِرَاء ، ولا أترك لشَغب ، ولا أزْهد فى جدال ، ولا أكفّ عن قتال من كتاب !

---

(١) الردن : مقدم كم القميص .

(٢) عيسى بن عمر الثقفىّ مولى خالد بن الوليد . إمام فى النحو واللغة وقد روى عن الحسن البصرى والعجاج بن رؤبة .

(٣) العضيهة : البهتان والكلام القبيح .

ولا أعلم قريناً أحسن موافاةً ، ولا أعجل مُكافاة ، ولا أحْضَر معونة ، ولا أخفّ مؤونة ؛ ولا شجرةً أطول عمراً ، ولا أجْمَع أمراً ، ولا أطيبَ ثمرة ، ولا أقرب مُجْتنى ، ولا أسرع إدراكاً ، ولا أوجد فى كل إبّان من كتاب ! ولا أعلم نِتاجًا فى حداثة سنّه ، وقربِ ميلاده ، ورخص ثمنه ، وإمكان وجوده ، يجمع من التدابير العجيبة ، والعلوم الغريبة ؛ ومن آثار العقول الصحيحة ، ومحمود الأذهان اللطيفة ؛ ومن الحِكَمِ الرفيعة ، والمذاهب القويمة ، والتجارب الحكيمة ؛ ومن الإخبار عن القرون الماضية ، والبلاد المتنازحة ، والأمثال السائرة ، والأمم البائدة ، ما يجمع لك الكتاب[1] !

البيـــان

قال بعض جهابذة الألفاظ ونُقّاد المعانى : المعانى القائمة فى صدور العباد ، المتصوَّرة فى أذهانهم ، والمتحلِّجة[2] فى نفوسهم ، والمتّصلة بخواطرهم ، والحادثة عن فكرهم ، مستورة خفيّة ، وبعيدة وحشيّة ، ومحجوبة مكنونة ، وموجودة فى معنى معدومة . لا يعرف الإنسان ضمير صاحبه ، ولا حاجة أخيه وخليطه[3] ، ولا معنى شريكه والمعاون له على أموره ، وعلى ما لا يبلغه من حاجات نفسه إلّا بغيره ، وإنما تحيا

---

(١) من كتاب « الحيوان » المقدمة . الجزء الأول ص ٣٨-٤٢

(٢) المتحلجة : المضطربة .

(٣) الخليط : المخالط ، أى المشارك والصاحب .

تلك المعانى فى ذكرهم لها ، وإخبارهم عنها ، واستعمالهم إيَّاها . وهذه الخِصال هى التى تقرِّبها من الفهم ، وتجليها[1] للعقل ، وتجعل الخفىّ منها ظاهراً ، والغائبَ شاهداً ، والبعيد قريباً ؛ وهى التى تلخّص الملتبس[2] وتحلّ المنعقِد ، وتجعل المُهْمَل مقيَّداً ، والمقيَّد مُطْلَقاً ، والمجهولَ معروفاً ، والوحشىّ مألوفاً ، والغُفْلَ[3] موسوماً ، والموسوم معلوماً . وعلى قدر وضوح الدلالة وصواب الإشارة ، وحسن الاختصار ، ودقّة المدخل ، يكون إظهار المعنى . وكلّما كانت الدلالة أوضح وأفصح ، وكانت الإشارة أبْيَن وأنْوَر ، كان أنفع وأنجع[4] . والدلالة الظاهرة على المعنى الخفىّ هو البيان الذى سمعت الله تبارك وتعالى يمدحه ويدعو إليه ويحثّ عليه . وبذلك نطق القرآن ، وبذلك تفاخرت العرب ، وتفاضلت أصناف الأعجام . والبيان اسم جامع لكل شىء كشف لك قناع المعنى ، وهتَك الحجُب دون الضمير ، حتى يفضى السامع إلى حقيقته ، ويهجم على محصوله كائناً ما كان بذلك البيان ، ومن أى جنس كان ذلك الدليل ؛ لأن مدار الأمر والغاية التى إليها يجرى القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام ، فبأىّ شىء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان فى ذلك الموضع . . .

وأحسن الكلام ما كان قليله يُغنيك عن كثيره ومعناه فى ظاهر

---

(١) تجليها : تظهرها .

(٢) الملتبس : المختلط .

(٣) الغفل : ما لا علامة فيه .

(٤) نجع الطعام أو الدواء أو الكلام : نفع .

لفظه ، وكان الله عزّ وجلّ قد ألبسه من الجلالة ، وغشّاه[1] من نور الحكمة على حسب نيّة صاحبه وتقوى قائله ، فإذا كان المعنى شريفاً واللفظ بليغاً ، وكان صحيح الطبع بعيداً من الاستكراه ، ومنزّهاً عن الاختلال ، مصوناً عن التكلُّف ، صنعَ فى القلب صنيعَ الغَيْث فى التُّرْبة الكريمة . ومتى فصلت الكلمة على هذه الشريطة ، ونفذت من قائلها على هذه الصفة ، أصحبها الله من التوفيق ، ومنحها من التأييد ، ما لا يمتنع من تعظيمها به صدور الجبابرة ، ولا يذهل عن فهمها عقول الجَهَلَة[2] .

الترجمـــــة

أقبل أبناء ذلك العصر على النقل والترجمة فنقلوا علوم اليونان وحكمة الهنود وتواريخ الفرس ، وكان أكثر النقلة من السريان الذين لا يتقنون العربية إتقاناً جيداً ، فكان فى نقلهم سيئات كثيرة . وهذا الجاحظ يحدثنا عن حركة النقل ويبدى لنا آراءه فى الترجمة .

قال بعضُ مَن ينصر الشِعْر ويحوطه ويحتجُّ له : إنّ الترجمان لا يؤدّى أبداً ما قال الحكيم على خصائص معانيه وحقائق مذاهبه ودقائق اختصاراته وخفيّات حدوده ، ولا يقدر أن يوفّيها حقوقها ويؤدّى الأمانة فيها ، ويقوم بما يلزم الوكيل ويجب على الجرِىّ[3] وكيف يقدر على أدائها وتسليم معانيها ، والإخبار عنها على حقِّها وصدقها إلاّ أن

---

(١) غشى الشىء وعلى الشىء : غطاه .

(٢) من كتاب « البيان والتبيين » الجزء الأول — مصر ١٣١١ هـ ص ٢٣ .

(٣) الجرى : الوكيل .

يكون فِي العِلْم بمعانيها ، واستعمال تصاريف ألفاظها ، وتأويلات مخارجها ، مثل مؤلِّف الكتاب وواضعه ؟ فمتى كان ، رحمه الله تعالى ، ابن البطريق ، وابن ناعمة ، وأبو قرّة (ابن قرّة) ، وابن فِهْر ، وابن وهيلى ، وابن المقفَّع ، مثل أرسطاطاليس ؟ ومتى كان خالد مثل أفلاطون ؟ ولا بدّ للترجمان من أن يكون بيانه فى نفس الترجمة فى وزن علمه فى نفس المعرفة . وينبغى أن يكون أعلم الناس باللغة المنقولة والمنقول إليها ، حتى يكون فيهما سواء وغاية . ومتى وجدناه أيضاً قد تكلّم بلسانَيْن علمنا أنّه قد أدخل الضَّيْم عليهما ، لأن كل واحدة من اللغتين تجذب الأُخرَى وتأخذ منها وتعترض عليها ؛ وكيف يكون تمكُّن اللسان منهما مجتمعَيْن فيه كتمكُّنه إذا انفرد بالواحدة ، وإنّما له قوّة واحدة ، فإن تكلّم بلغة واحدة استفرغت تلك القوة عليهما ، وكذلك إن تكلم بأكثر من لغتين على حساب ذلك تكون الترجمة لجميع اللغات . وكُلّما كان الباب من العلم أعسر وأضيق ، والعلماء به أقلّ ، كان أشدّ على المُترجِم ، وأجدر أن يُخطىء فيه ، ولن تجد البتّة مترجِماً يفى بواحدٍ من هؤلاء العلماء . هذا قولنا فى كتب الهندسة والتنجيم والحساب واللحون ، فكيف لو كانت هذه الكتب كتب دين ؟ . . .[1]

---

(١) كتاب « الحيوان » الجزء ١ ص ٣٨ .

٢ ـ الجاحظ رجل الاعتزال والتحرى العلمى

العقل والحجّة

العجَب مِنْ تَرْكِ الفُقهاء تمييز الآثار ، وترك المتكلّمين القول فى تصحيح الأخبار ، وبالأخبار يَعرف الناس النبىّ من المتنبّى[1] ، والصادق من الكاذب . وبها يعرفون الشريعة من السنّة ، والفريضة من النافلة[2] ، والحظر من الإباحة ، والاجتماع من الفرقة ، والشُّذوذ من الاستفاضة ، والردّ من المعارضة ، والنار من الجنّة ، وعامّة المفسدة والمصلحة . . .

إنّ كل منطيق[3] محجوج[4] ، والحجّة حجّتان : عيان ظاهر ، وخبر قاهر . فإذا تكلّمْنا فى العيان وما يفرع منه ، فلا بُدَّ من التعارف فى أصله ، والتعارف فى فرعه . فالعقل هو المستدِلّ ، والعيان والخبر هما علّة الاستدلال وأصله ، ومحال كون الفرع مع عدم الأصل ، ويكون الاستدلال مع عدم الدليل ، والعقل مضمن بالدليل ، والدليل مضمن

---

(١) المتنبى : المدعى النبوة .

(٢) النافلة والنفل : ما تفعله مما لم يفرض ولم يجب عليك فعله . ولقد استعمل ابن الفارض الفروض والنفل استعمالا لطيفاً فى الشعر ، حيث يقول :

أنتم فـروضى ونفـلى أنتم حديـثى وشـغلى
يا قبلتى فى صـلاتى إذا وقفت أصـلى

(٣) المنطيق : البليغ الفصيح اللسان .

(٤) محجوج : مغلوب بالحجة .

بالعقل ، ولا بُدّ لكل واحد منهما من صاحب ، وليس لإبطال أحدهما [وجه مع إيجاب الآخر ، والعقل نوع واحد ، والدليل نوعان : أحدهما] شاهد عيان يدلّ على غائب ، والآخر مجيء خبر يدلّ على صدق[١] .

الشكّ طريق إلى اليقين

زعم لى ابن أبى العجوز أن الدسّاس[٢] تلد ، وكذلك خبّرنى به محمّد بن أيّوب بن جعفر عن أبيه ، وخبّرنى به الفضل بن إسحق ابن سليمان ، فإن كان خبرهما عن إسحق فقد كان إسحق فى معادن العلم . وقد زعموا بهذا الإسناد أن الأرويّة[٣] تضع مع كل ولد وضعته أفعى فى مشيمة[٤] واحدة ، وقال الآخرون : الأرويّة لا تعرف بهذا المعنى ، ولكنه ليس فى الأرض نمرة إلاّ وهى تضع ولدها وفى عنقه أفعى فى مكان الطوق ، وذكروا أنها تنهش وتعضّ ولا تقتل . ولم أكتب هذا لتقرّ به ، ولكنه رواية أحببت أن تسمعها ، ولا يعجبنى الإقرار بهذا الخبر ، وكذلك لا يُعجبنى الإنكار له . ولكن ليكن قلبك إلى إنكاره أميل . وبعد هذا فاعرف مواضع الشك وحالاتها الموجبة له لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له ، وتعلم الشك فى المشكوك فيه تعلماً . فلو لم يكن فى ذلك إلاّ تعرُّف التوقّف ثم

---

(١) من كتاب « حجج النبوة » .
(٢) الدساس : حية خبيثة .
(٣) الأروية : أنثى الوعول .
(٤) المشيمة : محل الولد ، تخرج معه عند الولادة .

التثبُّت ، لقد كان ذلك ممّا يُحتاج إليه . ثم اعلم أن الشك فى طبقات عند جميعهم ، ولم يُجمعوا على أن اليقين طبقات فى القوّة والضعف . ولمّا قال أبو الجهم للمكىّ : أنا لا أكاد أشك ؛ قال المكىّ : وأنا لا أكاد أوقن . ففخر عليه المكىّ بالشك فى مواضع الشكّ ، كما فخر عليه ابن الجهم باليقين فى مواضع اليقين[1] .

التعسُّف فى التَّفْسير

تعرض الجاحظ فى اعتزاله لكثير من أمور الدين ولكثير ممن يعدون أنفسهم علماء فى تلك الأمور ، وقد عمل على تفنيد آرائهم تارة بالحجة الراهنة ، وطوراً بالهزء والتهكم .

زعم بعض المفسّرين أنَّ السنَّوْر[2] خُلق من عطسة الأسد ، وأن الخنزير خُلق من سلحة[3] الفيل ، لأن أصحاب التفسير يزعمون أن أهل سفينة نوح لما تأذّوا بكثرة الفار وشكوا إلى نوح ذلك ، سأل ربّه الفرج ، فأمره أن يأمر الأسد فيعطس . فلما عطس خرج من مِنْخريه زوج سنانير من ذكر وأنثى ، خرج الذكر من المنخر الأيمن والأنثى من المنخر الأيسر ، فكفاهم مؤونة الجرذان . ولمّا تأذّوا برائحة نجوها[4] شكوا ذلك إلى نوح وشكا ذلك إلى ربّه ، فأمره أن يأمر الفيل فيسلح ،

---

(١) من كتاب « الحيوان » الجزء ٦ ص ١٠ .

(٢) السنور : الهر .

(٣) السلحة : التغوط والنجو .

(٤) النجو : ما يخرج من البطن من ريح أو غائط .

فسلح زوج خنازير ، فكفياهم مؤونة رائحة النّجو . وهذا الحديث نافق عند العوامّ وعند بعض القُصّاص[١] .

تخليط بعض العلماء

شاعت الطريقة العلمية فى عهد الجاحظ من استقراء وتحر وإعمال العقل ، والبلوغ إلى الحقيقة عن طريق الشك والاختبار وما إلى ذلك ، ويظهر ذلك فى ما يلى :

ومِمّا لا أكتب لك من الأخبار العجيبة التى لا يجسُر عليها إلّا كل وَقَاح[٢] ، أخبار بعض العلماء و بعض من يؤلِّف الكتب ويقرؤها ويُدارس أهل العِبَر[٣] ويتحفَّظها . زعموا أن الضبع يكون عاماً ذكراً وعاماً أنثى ، وسمعت هذا من جماعة منهم من لا أستجيز تسميته . قال الفضل بن إسحق : أنا رأيت العَفْص والبلّوط فى غصنٍ واحد ، قال : ومن الغُصن ما يكون مثل الأُكَر . وقد خبّرنِى بذلك غيره ، وهو يُشبه تحوُّل الأنثى ذكرًا والذكر أنثى . وقد ذكرت العرب فى أشعارها الضّباع والذئاب والسِّبع والعِسْبار[٤] وجميع الوحوش والحشرات والأحناش ، وهم أخبر الخلق بشأن الضبع ، فكيف تركت ما هو أعجب وأطرف . وقد ذكرت العلماء الضباع فى مواضع من الفُتْيا[٥] لم نَرَ أحدًا ذكر ذلك . وأولئك بأعيانهم هم

---

(١) من كتاب « الحيوان » الجزء ٥ ص ١٠٦ .

(٢) الوقاح : ذو الوقاحة .

(٣) أى يقرأ عليهم .

(٤) العسبار : ولد الضبع من الذئب ، أو ولد الذئب .

(٥) الفتيا : ما أفتى به العالم ، وهى اسم من أفتى العالم إذا بين الحكم .

الذين يزعمون أن النمر تضع فى مشيمة[١] واحدة جروًا[٢] وفى عنقه أفعى قد تطوقت به . وإذا لم يأتنا فى تحقيق الأخبار شعر شائع أو خبر مستفيض لم نلتفت لِفتَه[٣] .

الجاحظ وأرسطاطاليس

سار الجاحظ على طريقة علمية ، وقد اعتمد أرسطو فى كتاب الحيوان ، إلا أنه لا ينقاد إلى كل أقواله وآرائه ، ويعرف أن العلم يتطور ويتقدم ، وها هو ذا يتعرض له ويقف عند بعض آرائه موقفاً يشبه الحيادى فيقول :

ذكر صاحب المنطق[٤] أن الطير الكبير الذى يُسمَّى باليونانيَّة « أغتيوليس » يُحكم عشّه ويتقنه ، ويجعله مستديرًا مُداخلًا كأنه كرة معمولة . وروى أنهم يزعمون أن هـذا الطائر يجلب الدّارصينى[٥] من موضعه ، فيفرش به عُشّـه ، ولا يعشّش إلاّ فى أعالى الشجر المرتفعة المواضع . قال : وربّما عمد الناس إلى سهام يشدّون عليها رصاصاً ثم يرمون بها أعشّتها فيسقط عليهم الدارصينىّ فيلتقطونه ويأخذونه . . . ولستُ أدفع خبر صاحب المنطق عن صاحب الدّارصينى ، وإن كنت لا أعرف الوجه فى أن طائرًا ينهض من وكره فى الجبال أو بفارس أو باليمن ، فيؤمّ ويعمد نحو بلاد الدّارصينى وهو لم يجاوز موضعه ، ولا قرب منه ؛

---

(١) المشيمة : محل الولد تخرج معه عند الولادة .

(٢) الجرو : ولد كل سبع .

(٣) من كتاب «الحيوان» — الجزء ٧ ص ٤٩ .

(٤) صاحب المنطق : أرسطو .

(٥) الدراصينى : شجر هندى يكون بتخوم الصين كالرمان .

وليس يخلو هذا الطائر من أن يكون من الآوابد[١] أو من القواطع[٢] . وإن كان من القواطع فكيف يقطع الصّحصحان[٣] الأملس و بطون الأودية وأهضام[٤] الجبال بالتدويم[٥] فى الأجواء وبالمضىّ على السَّمْت[٦] ، لطلب ما لم يره ولم يشمّه ولم يذقه . وأُخرى فإنّه لا يجلب منه بمنقاره ورجليه ما يصير فراشاً له ومهادًا إلّا بالاختلاف[٧] الطويل . و بعد فإنه ليس بالواطئ الوثير[٨] ، ولا هو له بطعام . فأنا وإن كنتُ لا أعرف العـلّة بعينها فلستُ أنكر الأمور من هذه الجهة ؛ فاذكرْ هـذا[٩] .

الجرذ والعقرب

يزعمون أنهم لم يروا قتالاً قطّ بين بهيمتين ولا سَبُعَين[١٠] أشدّ من قتال يكون بين جُرَذَيْن . فإذا رُبط أحدهما بطرف خيط وشـد رجل

(١) الأوابد : غير المقيمة .

(٢) القواطع : المقيمة .

(٣) الصحصحان : ما استوى من الأرض .

(٤) الأهضام : بطون الأودية .

(٥) التدويم : التحليق .

(٦) السمت : الطريق والمحجة .

(٧) الاختلاف إلى المكان : التردد إليه .

(٨) الوثير : الوطيء اللين .

(٩) من كتاب « الحيوان » الجزء ٣ ص ١٦٢ .

(١٠) السبع : المفترس من الحيوان مطلقاً .

الآخر بالطرف الآخر فلهما عنــد ذلك من الجلَب[١] والخمش والعضّ والتّنييب[٢] والعِفاس[٣] ما لا يوجـد بين شيئين من ذوات العِقار[٤] والهراش[٥] . إلا أنّ ذلك ما داما فى الرِّباط ؛ فإذا انحلّا وانقطع ولّى كلُّ واحد منهما عن صاحبه وهرب فى الأرض وأخذ خلاف جهة الآخر .

وإن جُعلا فى إناء من قوارير ، أعنى الجُرذ والعقرب — وإنّما ذكرت القوارير لأنها لا تستر عن أعين الناس صنعهما ، ولا يستطيعان الخروج لملاسة الحيطان — فالفارة عند ذلك تَخْتِل[٦] العقرب . فإن قبضت على إبرتها قرصتها ، وإن ضربتها العقرب ضَرْباً كثيراً فاستنفدت سمّها كان ذلك من أسباب حتفها[٧] .

---

(١) الجلب : اختلاط الأصوات .

(٢) التنييب : العض بالأنياب .

(٣) العفاس : الضرب بالرجلين .

(٤) العقار : المنافرة .

(٥) الهراش : الخصام .

(٦) ختله : خدعه وأخذه بالحيلة .

(٧) من كتاب « الحيوان » — الجزء ٥ ص ٧٧ .

٣ ـ الجاحظ مصوّر عصره

ا ـ المذاهب والنزعات الدينية

الزّنادقة وكتُبُهم

كثر الزنادقة فى عهد الجاحظ واهتمّ لذلك الخلفاء ، فراح الجاحظ يضرب على أيديهم ويظهر فساد عملهم . وهو فى ما يلى يدلى برأيه فى التأليف والمؤلفات فيقول :

لو كانت كُتب الزّنادقة كتب حكَم ، وكتب فلسفة ، وكُتُب مقاييس ، وسنن تبيّين وتَبْيين ، أو لوكانت كُتُبهم كُتُباً تُعرّف الناس أبواب الصناعات ، أو سُبُل الكَسْب والتجارات ، أو كُتُب ارتفاقات[1] ورياضات ، أو بعض ما يتعاطاه الناس من الفِطَن والآداب — وإن كان ذلك لا يُقَرِّب من غِنًى ولا يُبعد من مأثم — لكانوا مِمَّن قد يجوز أن يُظَنّ بهم تعظيم البيان ، والرغبة فى التّبيين ، ولكنّهم ذهبوا فيها مذهب الديانة على طريق تعظيم المِلّة . . . والذى يدلّ على ما قُلنا أنه ليس فى كُتُبهم مَثَل سائر ، ولا خبر طريف ، ولا صنعة أدب ، ولا حكمة غريبة ، ولا فلسفة ، ولا مسألة كلاميّة ، ولا تعريف صناعة ، ولا استخراج آلة ، ولا تعليم فلاحة ، ولا تدبير حرب ، ولا منازعة عن دين ، ولا مناضلة عن نحلة[2] . . . لا ترى فيها موعظة حسنة ، ولا حديثاً مونِقًا ، ولا تدبير معاش ،

---

(١) الارتفاق : الانتفاع .

(٢) النحلة : جمعها نحل ، المذهب والديانة .

ولا سياسة عامة ، ولا ترتيب خاصّة ؛ فأىّ كتاب أجهل ، وأىّ تدبير أفسد من كتاب يوجب على الناس الإطاعة والتحرّج بالديانة على جهة الاستبصار[1] والمحبّة ، وليس فيه صلاح معاش ، ولا تصحيح دين . والناس لا يحبّون إلّا دينًا أو دُنيا .

مناظرة بين المأمون وأبى على الزنديق

شاعت فى عصر الجاحظ المناظرات ، كما كانت شائعة عند اليونان ، وكانت وليدة العلم والسعى وراء الحقيقة فى جميع ميادين المعرفة . وقد فسحت لها الحرية الدينية فى المجال الواسع . وكان المأمون من الداعين إليها والمشتركين فيها رامياً من ورائها إلى اجتماع الطوائف على ما هو أصلح للدين . إلا أنه كان يأبى الشتم والبذاءة فى المناظرات ، لأن الشتم عى والبذاءة لؤم .

ومسألة أخرى سأل عنها أمير المؤمنين الزنديق الذى كان يُكنى بأبى علىّ ، وذلك عند ما رأى من تطويل محمّد بن الجهم ، وعَجْز العُتْبىّ ، وسوء فهم القاسم بن سيّار ، فقال له المأمون : أسألك عن حَرْفَيْن فقط ، خَبّرنى هل ندِمَ مُسىءٌ قطّ على إساءته ، أو نكون نحن لم نندم على شىء كان منّا قط ؟ قال : بل ندم كثير من المُسيئين على إساءتهم . قال : فخبّرنى عن الندم على الإساءة ، إساءة أو إحسان ؟ قال : إحسان . قال : فالذى ندم هو الذى أساء أو غيره ؟ قال : الذى ندم هو الذى أساء . قال : فأرى صاحب الخير هو صاحب الشرّ ، وقد بطل قولكم : إن الذى ينظر نظر الوعيد غير الذى ينظر نظر

(١) الاستبصار : التأمل .

الرحمة . قال : فإنى أزعم أن الذى أساء غير الذى ندم . قال : فندم على شىء كان منه ، أو على شىء كان من غيره ؟ فقطعه بمسألته ، ولم يَتُب ولم يرجع حتى مات[1] .

المـــانويّة

المانوية أصحاب مانى وقد قال بمبدأين فى العالم : مبدإ الخير ومبدإ الشر .

إنّ أُناساً حين جهلوا الأسباب والمعانى ، وقصّروا فى الخلْقة عن تأمّل الصواب والحكمة فيها ، خرجوا إلى الجحود والتكذيب ، حتى أنكروا خَلْق الأشياء ، وزعموا أن كونَها بإهمال لا صنعة فيه ولا تقدير ، فكانوا بمنزلة عميان دخلوا داراً قد بُنيت أتقنَ بِناء ، وفُرشت أحسن فَرْش ، وأُعِدّ فيها من ضروب الأطعمة والأشربة والمآدب ، ووُضِع كُلّ شىء من ذلك فى موضعه على صواب وتقدير ، فجعلوا يَسْعَوْن فيها محجوبة أبصارهم فلا يُبصرون هيئة الدار وما أُعِدَّ فيها ، ورُبّما عثر الواحِد منهم بالشىء قد وُضِع فى موضعه وأُعِدّ لشأنه ، وهو جاهل بالمعنى فيه ، فتذمّر وتسخّط وذمّ الدارَ وبانيها .

فهذه حال هذا الصّنف فى إنكارهم ما أنكروا من الخلقة ، وأنّهم لمّا غَبِيَتْ أذهانهم عن معرفة الأسبـــاب والعِلل فى الأشياء ، صاروا يجولون فى هــذا العالم كالحيارى لا يفقهون ما هو عليه فى إتقان خلقته ،

---

(١) من كتاب « الحيوان » الجزء الرابع ص ١٤١ .

وصواب هيئته ، وربّما وقف الواقف منهم على الشيء يجهل سببه والأَرَبَ فيه ، فيُسرع إلى ذمّهِ وعيبه ووصْفِه بالخطإ والإحالة[1] ، كالذى أقْدَمَتْ عليه وجاهرت به المنانيّةُ الـكفرة ، وأشباههم من أهل الضلال . فحقّ على من أنعم الله عليه بمعرفته ، ووفّقه لتأمّل هذه الخليقة ، والوقوف عَلَى ما فى خلقها من لطف التدبير ، وصواب التقدير ، بالدلائل القائمة فيها ، أن لا يقَصِّر فى إظهار ما بلغه علمه من ذلك ، بل يجهد فى نشره وإذاعته وإيراده على المسامع والأذهان ، لتقوى دواعى الإيمان ، وتخيب مكيدة الشيطان .

الجاحظ والمجوسىّ

انتشرت الحرية الدينية فى عهد الجاحظ ، واتسع المجال للمساجلات الكلامية والمعارضات المذهبية حتّى إن المجوس أنفسهم كانوا يعارضون علماء المسلمين ، ومن ذلك ما رواه الجاحظ إذ قال :

قد عارضنى بعض المجوس[2] وقال : فلعلّ أيضاً صاحبكم إنّما توعّد أصحابه بالنار ، لأنّ بلادهم ليست ببلادِ ثلج ، ولا دَمَق[3] ، وإنّما هى ناحية الحرور[4] والوهج والسّموم[5] ، لأنّ ذلك المكروه أزْجَرُ لهم . فرأى هذا المجوسىّ أنه قد عارضنى ، فقلتُ له : إنّ أكثر بلاد العرب

---

(١) الإحالة : المحال والباطل .

(٢) « المجوس » : مذهب الفرس يجعلون أصل العالم النور والظلمة إلا أن النور أزلى والظلمة محدثة . وتدور فلسفتّهم على سبب امتزاج الظلمة بالنور ، وخلاص النور من الظلمة وهو المعاد .

(٣) الدمق : ريح وثلج ، معرب « دمه » بالفارسية .

(٤) الحرور : الريح الحارة .

(٥) السموم : الحر الشديد النافذ فى المسام .

موصوفة بشدّة الحرّ فى الصّيف ، وشدّة البرد فى الشّتاء ، لأنّها بلاد صخور وجبال ، والصّخر يقبل الحرّ والبرد ، ولذلك سمّتِ الفُرْس بالفارسيَّة العرب والأعراب : « كهيان » ، و « الكه » بالفارسية هو الجبل . فمتى أحبَبْتَ أن تعرف مقدار برد بلادهم فى الشتاء ، وحرّها فى الصّيف ، فانظر فى أشعارهم ، وكيف قسموا ذلك ، وكيف وصفوه ، لتعرف أن الحالتين سواء عندهم فى الشدّة . والبلاد ليس يشتدّ بردها على كثرة الثلج وقلّته ، فقد تكون بلدة أبرد وثَلْجها أقلّ ؛ والماء ليس يجمد للبرد فقط ، فيكون متى رأينا بلدة ثلجها أكثر حكمنا أن نصيبها من البرد أوفر ؛ وقد تكون الليلة باردة جدًّا ، وتكون متغيِّرة ، فلا يجمد الماء ، ويجمد فيما هو أقلّ منها بردًا ، وقد يختلف جمود الماء فى الليلة ذات الريح على خلاف ما يقدرون ويظنّون . وقد خبَّرنى من لا أرتاب بخبره أنّهم كانوا فى موضع من الجبل يستغشون[1] به بلبس المبطّنات ، ومتى صبّوا ماء فى إناء زجاج ووضعوه تحت السّماء جمد من ساعته . فليس جمود الماء بالبَرْد فقط ، ولا بُدّ من شروط ، ومقادير ، واختلاف جواهر ، ومقابلات أحوال ، كسرعة البرد فى بعض الأدْهان ، وإبطائه عن بعض ، وكاختلاف عمله فى الماء المغلىّ ، وفى الماء المتروك على حاله ، وكاختلاف عمله فى المـــاء والنبيذ ، كما يعترى البول من الخثورة[2] والجمود ، على قدر طبائع الطعام والقلة ، والزيت خاصة يصيبه

---

(١) يستغشون : يتغطون .

(٢) الخثورة : الغلظ .

المقدار القليل من النار فيستحيل من الحرارة إلى مقدار لا يستحيل إليه ما هو أحرّ . وحجة أخرى على المجوس ، وذلك أنّ محمدًا صلّى الله عليه وسلّم لو كان قال لم أُبعث إلاّ إلى أهل مكة لكان له متعلّق من جهة هذه المعارضة ، فأما وأصل نبوّته ، والذى عليه مخرج أمره ، وابتداء مبعثه إلى ساعة وفاته ، أنّه المبعوث إلى الأحمر والأسود وإلى الناس كافّة ، وقد قال الله تعالى : « قُلْ يَـٰأَيُّهَا الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً . » وقد قال تعالى : « نذيرًا للبشر » ؛ فلم يبقَ أن يكون مع ذلك قولهم معارضة ، وأن يُعَدّ من باب الموازنة[1] .

ب — الشعراء والقيان وأصحاب اللهو

الشـــــعراء

ما ظنك بالشُّعراء والخطباء الذين إنما تعلموا المنطق لصناعة التكسُّب[2] ؟ وهؤلاء قوم بودّهم أن أرباب الأموال قد جاوزوا حدّ السَّلامة إلى الغفلة ، حتى لا يكون للأموال حارس ، ولا دونها مانع ! فاحذرهم ، ولا تنظر إلى بزّة أحدهم ، فإن المسكين أقنع منه ؛ ولا تنظر إلى موكبه ، فإن السائل أعفّ منه . واعلم أنه فى مَسْكِ مِسكين[3] ، وإن

---

(١) من كتاب « الحيوان » الجزء ٥ ص ٣٥ .

(٢) التكسب : طلب الرزق .

(٣) أى هو فى جلد مسكين ، أى أنه حقير .

كان فى ثياب جياد ؛ وروحه روح نذل ، وإن كان فى جرم[١] ملك ؛ وكلهم ، وإن اختلفت وجوه مسئلتهم ، واختلفت أقدار مطالبهم ، فهو مسكين . إلاّ أنّ واحداً يطلب العِلْق[٢] ، وآخر يطلب الخِرَق ، وآخر يطلب الدّوانيق[٣] ، وآخر يطلب الألوف . فجهة هذا هى جهة هذا ، وطُعْمة[٤] هذا هى طعمة هذا ، وإنما يختلفون فى أقدار ما يطلبون ، على قدر الحذق والسّبب . فاحذر رُقاهم[٥] ، وما نصبوا لك من الشَّرَك ، وأُحرُسْ نِعمتك وما دسُّوا لها من الدواهى ، واعملْ على أنّ سِحْرَهم يَسْتَرِقُ الذّهن ، ويختطفُ البصر . قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : « إنّ مِنَ البيانِ لَسِحْراً » . وسمع عُمَرَ بن عبد العزيز رجلاً يتكلّم فى حاجةٍ فقال : « هذا واللهِ السِّحْرُ الحلال » . وقد قال رسول الله صَلّى الله عليه وسلم : « لا خلابة »[٦] . واحذر احتمال مديحهم ، فإن مُحتَمِلَ المديح فى وجهه كمادح نفسه . إن مالك لا يسع مريديه ، ولا يبلغ رضى طالبيه ، ولو أرضيتهم بإسخاط مثلهم لكان ذلك خُسْراناً مُبيناً ، فكيف ومن يسخط أُضعاف من يرضى ؟ وهجاء الساخط أضرُّ

---

(١) الجرم : الجسم .

(٢) العلق : النفيس من كل شىء .

(٣) الدوانيق ج دانق وهو سدس الدرهم ، معرب « دانك » الفارسية ، ومعناه الحبة (أى أنه بوزن الحبة من الحنطة ونحوها) .

(٤) الطعمة : الرزق .

(٥) الرق ج رقية وهى العوذة .

(٦) أى لا خداع .

من فقد مديح الراضى . وعلى أنهم إذا اعتوروك[١] بمشاقصهم[٢] ، وتداولوك بسهامهم ، لم ترَ ممَّن أرضيته بإسخاطهم أحداً يناضل عنك ، ولا يهاجى شاعراً دونك ، بل يخليك غرضاً لسهامهم ، ودريئةً[٣] لنبالهم ، ثم يقول : وما كان عليه لو أرضاهم ؟ فكيف يرضيهم ورضى الجميع شىء لا يُنال ؟ وقد قال الأول : وكيف يتَّفق لك رضى المختلفين ؟ وقالوا : منع الجميع أرضى للجميع[٤] . . .

كَذِب بكذب

ومثل هذا الحديث ما حدثنى به محمد بن يسير[٥] عن والٍ كان بفارس ، إما أن يكون خالداً أخا مهرويه ، أو غيره ، قال : بينا هو يوماً فى مجلس ، وهو مشغول بحسابه وأمره ، وقد احتجب[٦] جهده ، إذ نجم[٧] شاعر من بين يديه ، فأنشده شعراً مدحه فيه وقرظه[٨] ومجَّده ، فلما فرغ قال : قد أحسنت . ثم أقبل على كاتبه فقال : أعطه عشرة آلاف درهم ! ففرح الشاعر فرحاً قد يُسْتَطارُ[٩] لَهُ ، فلما رأى حاله قال :

---

(١) اعتوروك : تداولوك .
(٢) المشاقص : ج مشقص، وهو النصل العريض أو الطويل .
(٣) الدريئة : الهدف .
(٤) من كتاب « البخلاء » ص ٢٧٤ .
(٥) محمد بن يسير : شاعر بصرى .
(٦) احتجب جهده : تخفى ماااستطاع .
(٧) نجم : ظهر .
(٨) قرظه : مدحه .
(٩) قد يستطار له : أى قد يستخف الإنسان ويذهله .

وإنى لأرى هذا القول قد وقع منك هذا الموقع ، اجعلها عشرين ألف درهم . وكاد الشاعر يخرج من جلده ، فلما رأى فرحه قد تضاعف قال : وإن فرحَكَ ليتضاعف على قدر تضاعف القول ، أعطه يا فلان أربعين ألفاً ! فكاد الفرح يقتله ! فلما رَجَعتْ إليه نفسه قال له : أنت — جُعِلتُ فداك — رجل كريم ، وأنا أعلم أنك كلّما رأيتنى قد ازددت فرحاً ، زدتنى فى الجائزة ، وقبولُ هذا منك لا يكون إلا من قلة الشكر له[1] ، ثم دعا له وخرج . قال : فأقبل عليه كاتبه فقال : سبحان الله ! هذا كان يرضى منك بأربعين درهماً تأمر له بأربعين ألف درهم ! قال : ويلك ! وتريد أن تعطيه شيئاً ؟ قال : ومِنْ إنفاذ أمرك بدّ ؟ قال : يا أحمق إنما هذا رجل سرّنا بكلام ، وسررناه بكلام ! هو حين زعم أنى أحسنُ من القمر ، وأشدُّ من الأَسد ، وأن لسانى أقطع من السيف ، وأن أمرى أنفذ من السنان ، جعل فى يدى من هذا شيئاً أرجع به إلى شىء ؟ ألسنا نعلم أنه قد كذب ؟ ولكنه قد سرّنا حين كذب لنا ، فنحن أيضاً نسرّه بالقول ، ونأمر له بالجوائز ، وإن كان كذباً ، فيكون كذب بكذب ، وقول بقول ؛ فأمّا أن يكون كذب بصدق ، وقول بفعل ، فهذا هو الخسران الذى ما سمعت به ![2]

---

(١) يقول : قبول هذه الزيادة المتواصلة والثبات فى مكانى من غير أن أخرج دليل على أنى أجد العطاء قليلا ، فأقل من الشكر له لأنال الزيادة فيه ، ولهذا أريد الخروج .

(٢) من كتاب « البخلاء » ص ٤٥ .

القَيْنـــة

كثر الأرقاء فى عهد الجاحظ ، وكثر بينهم من يحسن صناعة الغناء ، فكتب الجاحظ رسالة فى القيان ، وبين حالهن فى عصر تعددت فيه النزعات وشاع الفساد ، فقال :

كيف تَسلم القَيْنة من الفتنة ، أو يمكنها أن تكون عفيفة . وإنّما تكتسب الأهواء ، وتتعلَّم الألْسُن والأخلاق بالمنشإ . وهى إنّما تنشأ من لدن مولدها إلى أوان وفاتها بما يصدُّ عن ذكر الله من لهو الحديث ، وصنوف اللعب والأخاييث ، وبين الخُلَعاء والمُجّان ، ومَن لا يُسمع منه كلمة جِدّ ، ولا يرجع إلى فقه ولا دين ، ولا صيانة مروءة ، وتروى الحاذقة منهنّ أربعة آلاف صوت فصاعداً ، يكون الصَّوْت فيما بين البيتين إلى أربعة أبيات ، عدد ما يدخل فى ذلك من الشعر إذا ضُرِب بعضه ببعض عشرة آلاف بيت ، ليس فيها ذكر الله إلاّ عن غفلة ، ولا ترهيب عن عقاب ، ولا ترغيب فى ثواب ، وإنّما بُنيت كلُّها على ذكر الزّنى والقيادة ، والعشق والصَّبْوة ، والشوق والغُلْمة[١] ، ثمّ لا تنفكُّ من الدراسة لصناعتها ، مُنكَبَّةً عليها ، تأخذ من المُطارحين[٢] الذين طَرْحهم كلُّه تجميش[٣] ، وإنشادهم مُراودة ، وهى مضطرّة إلى ذلك فى صناعتها ، لأنّها إن جفَتْها تفلّتَتْ ، وإن أهملتها نقصَتْ ، وإن لم تستفِدْ منها وقفَتْ ، وكل واقف فإلى نُقصان أقرب ، وإنّما

---

(١) الغلمة : الشهوة والشبق .

(٢) المطارحون : الذين يعلمون الغناء .

(٣) التجميش : المغازلة والملاعبة .

فرق ما بين أصحاب الصناعات ، وبين مَن لا يُحسنها ، التزيُّد فيها ، والمواظبة عليها ، فهي لو أرادت الهُدى لم تعرفه ، ولو بغت العِفّة لم تقدر عليها[1] .

قميص السكران

سكر زبيدة[2] ليلة فكسا صديقاً له قميصاً ، فلما صار القميص على النديم خاف البدوات[3] ، وعلم أن ذلك من هفوات السكر ، فمضى من ساعته إلى منزله فجعله برنكاناً[4] لامرأته ، فلما أصبح سأل عن القميص وتفقده ، فقيل له : إنك قد كسوته فلاناً ، فبعث إليه ، ثم أقبل عليه ، فقال : ما علمت أن هبة السكران وشراءه وبيعه وصدقته وطلاقه لا يجوز ! وبعد فإني أكره أن لا يكون لى حَمْدٌ ، وأن يوجه الناس هذا منى على السكر ، فرُدّه علىّ حتى أهبه لك صاحياً عن طيب نفس ، فإنى أكره

---

(١) من « رسالة فى القيان » .

(٢) هو زبيدة بن حميد الصيرفى رجل غنى من أهل البصرة كان صيرفياً تاجر رقيق .

(٣) البدوات جمع بداة وهى ما يبدو من الرأى . وتطلق البدوات على الآراء المختلفة .

(٤) البرنكان هو الكساء الأسود أو الكساء مطلقاً ، وقد جاءت الكلمة فى الشعر فيما أنشد الجاحظ :

إنى وإن كان إزارى خلقا   وبرنكانى سملا قد أخلقا

قد جعل الله لسانى مطلقا

وقد كتب عنه العلامة دوزى Dozy فصلا فى كتابه « معجم الملابس »

Dictionnaire détaillé des noms des vêtements ches les Arabes.

ويصفه بأنه كساء كبير يلف الجسم كله يستعمله الرجال والنساء . . . (انظر ص ٢٧٣ — ٢٧٥ من « البخلاء » تحقيق طه الحاجرى) .

أن يذهب شيء من مالى باطلاً ، فلما رآه قد صمّم ، أقبل عليه فقال : يا هناه[١] ! إن الناس يمزحون ويلعبون ولا يؤاخذون بشيء من ذلك ، فرد القميص عافاك الله . قال له الرجل : إنى والله قد خفت هذا بعينه ، فلم أضعْ جَنْبي إلى الأرض حتى جَيَّبْتُهُ[٢] لامرأتى ، وقد زدْتُ فى الكُمَّيْن ، وحذفت المقاديم[٣] ، فإن أردت بعد هذا كله أن تأخذه فخذه . قال : نعم ! آخذه لأنه يصلح لامرأتى كما يصلح لامرأتك . قال : فإنه عند الصبَّاغ ، قال : فهاته ! قال : ليس أنا أسلمته إليه . فلما علم أنه قد وقع قال : بأبى وأُمي رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يقول : جمع الشرّ كله فى بيت وأغلق عليه فكان مفتاحُهُ السُّكر[٤] !

ج ـ الحياة الاقتصادية

كلام بكلام

حدثنى إبراهيم بن السِّندى قال : كان على « ربع الشاذروان[٥] »

(١) يا هناه : من لفظة « هن » كناية عن كل اسم جنس ومعناها شيء . ويقال للرجل : يا هن أقبل ، ويا هنان أقبلا ، ويا هنون أقبلوا . وتدخل على آخرها الهاء لبيان الحركة ، فتقول : يا هنه ، وتشبع الحركة فتتولد الألف ، فتقول : يا هناه أقبل .

(٢) جيب القميص : جعل له جيباً ، والمقصود هنا أنه فصله لامرأته .

(٣) المقاديم ج مقدم وهو ضد المؤخر .

(٤) من كتاب « البخلاء » ص ٦٠ .

(٥) ربع الشاذروان : لعله حى من أحياء بغداد ، فتكون بغداد مقسمة إلى أرباع ، ويكون هذا الشيخ مولى على هذا الربع يقوم بعمل القاضى أو ما أشبه ذلك ، أو لعله بناء من الأبنية المكينة تشبيهاً له بشاذروان مدينة تستر الذى يقول ابن خرداذبه إنه مبنى بالصخر وأعمدة الحديد وملاط الرصاص . أو لعله بحسب وصف البشارى عمل من الأعمال الهندسية التى كان يقصد بها إلى إلى تنظيم الرى فهو نوع من القناطر أو الخزانات نسب الربع إليه . (انظر البخلاء تحقيق طه الحاجرى).

شيخ لنا من أهل خُراسان ، وكان مصححاً ، بعيداً من الفساد ، ومن الرشاء[١] ، ومن الحكم بالهوى ، وكان حفيًّا جدًّا ، وكذلك كان فى إمساكه ، وفى بخله ، وتدنيقه[٢] فى نفقاته ، وكان لا يأكل إلّا ما لا بدّ منه ، ولا يشرب إلاّ ما لا بُدّ له منه ، غير أنه إذا كان فى غداة كل جمعة ، حمل معه منديلا فيه جردقتان[٣] ، وقطع لحم سكباج[٤] مبرّد ، وقطع جبن ، وزيتونات ، وصرّة فيها ملح ، وأخرى فيها أُشنان[٥] ، وأربع بيضات ، ليس منها بدّ ، ومعه خلال[٦] ، ومضى وحده حتى يدخلَ بعض بساتين الكرخ ، وطلب موضعاً تحت شجرة ، وسط خضرة ، وعلى ماء جارٍ ؛ فإذا وجد ذلك جلس ، وبسط بين يديه المنديل ، وأكل من هذا مرّةً ، ومن هذا مرّةً ، فإن وجد قيِّمَ ذلك البستان رمى إليه بدرهم ، ثم قال : اشترِ لى بهذا ، أو أعطنى بهذا رُطَباً[٧] — إن كان فى زمان الرُّطَبِ — أو عنباً — إن كان فى زمان العنب — ويقول له : إياك إياك أن تحابينى[٨] ولكن تجوّد[٩] لى ، فإنك إن فعلت لم آكُلْه ، ولم أعد إليك ، واحذر الغَبْن فإن المغبون

(١) الرشاء : لعل صوابه « الرشى » من الرشوة .
(٢) التدفيق : التقتير .
(٣) الجردقة : الرغيف معرب « كرو » بالفارسية . وقد ذكره أبو النجم فى شعره حيث قال :
كان بصيراً بالرغيف الجردق
(٤) السكباج : مرق يعمل من اللحم والخل، وربما جعل فيه زعفران . وهو معرب « سكبا» بالفارسية ومعناه طعام بخل .
(٥) الأشنان : (يونانى) نوع من النبات .
(٦) الخلال : ما تخلل به الأسنان .
(٧) الرطب : التمر قبل تمام نضجه .
(٨) حاباه فى البيع : ساهله ، وقد تكون العبارة هنا : « إياك أن تحايينى » أى تكلفنى الحياء .
(٩) تجود : تخير الجيد .

لا محمودٌ ولا مأجورٌ . فإن أتاه به أكل كلَّ شيء معه ، وكلَّ شيء أتى به . ثم تَخلَّل[1] ، وغسل يديه . ثم يمشى مقدار مئة خطوة ، ثم يضع جنبه فينام إلى وقت الجمعة ، ثم ينتبه فيغتسل ويمضى إلى المسجد .

هذا كان دأبه كل جمعة . قال إبراهيم : فبينا هو يوماً من أيامه يأكل فى بعض المواضع ، إذ مَرَّ به رجلٌ فسلم عليه ، فرد السلام ثم قال : هَلُمَّ عافاكَ الله . فلمّا نظر إلى الرجل قد انثنى راجعاً يريد أن يَطْفِرَ[2] الجدول أو يتعدّى النهر قال له : مكانَك ! فإن العجلة من عمل الشيطان . فوقف الرجل ، فأقبل عليه الخراسانىّ وقال : تريد ماذا ؟ قال : أريد أن أتغدّى ! قال : ولم ذلك ، وكيف طمعتَ فى هذا ؟ ومن أباح لك مالى ؟ قال الرجل : أو ليس قد دَعوْتنى ؟ قال : ويلك ! لو ظننتُ أنك هكذا أحمق ما رددتُ عليك السلام ! الأمر فيما نحن فيه أن تكون إذا كنتُ أنا الجالس ، وأنت المارّ ، تبدأ أنت فتُسلِّم ، فأقول أنا حينئذٍ مجيباً لك : وعليكم السلام ، فإن كنتُ لا آكل شيئاً سكتُّ أنا ، ومَضَيتَ أنت ، وقعدتُ أنا على حالى . وإن كنت آكل ، فها هنا بيانٌ آخر : وهو أن أبدأ أنا فأقول : « هَلُمَّ » وتجيبُ أنتَ فتقول : « هنيئاً » ، فيكون كلام بكلام ! فأما كلام بفعال ، وقولٌ بأكل ، فهذا ليس من الإنصاف ! وهذا يخرج علينا فضلاً كثيراً ! قال : فورد على الرجل شىء لم يكن فى حسابه ، فَشُهِرَ[3] بذلك فى

(١) تبخلل : أزال الخلالة ، أى بقية الطعام ، من بين أسنانه .

(٢) طفر : وثب فى ارتفاع .

(٣) أى الخراسانى .

تلك الناحية ، وقيل له[١] : قد أعفيناك من السلام ومن تكلُّف الردّ .
قال : ما بى إلى ذلك حاجة ، إنما هو أن أعفى أنا نفسى من « هلمّ »
وقد استقام الأمر[٢] .

مَرْيم الصناَع

قال أصحابُنا من المسجديّين : اجتمع ناسٌ فى المسجد ممنْ ينتحل الاقتصاد فى النفقةِ ، والتنمية لِلمال ، (من أصحاب الجمع والمنع[٣]) وقد كان هذا المذهب صار عندهم كالنسب الذى يجمع على التحابّ[٤] ... فأقبل عليهم شيخٌ فقال : هل شعرتم بموت مريم الصَّناع[٥] فإنها كانت من ذوات الاقتصاد ، وصاحبة إصلاح ، قالوا : فحدثنا عنها . قال : نوادِرُها كثيرةٌ ، وحديثها طويل ، ولكنى أُخْبِرُكم عن واحدةٍ فيها كفايةٌ ، قالوا : وما هى ؟ قال : زَوَّجَتْ ابنَتَها وهى بنتُ اثنتى عشرةَ ، فحلَّتها الذهب والفضة ، وكستها المَرْوى[٦] والوشى ، والقز والخز ، وعلقت المعصفر[٧] ، ودقت الطيب ، وعظمت أمرها فى عين الخَتَنِ[٨] ورفعت من قدرها عند الأحماء[٩] ،

---

(١) أى جعل أهل الناحية يقولون للخراسانى

(٢) من كتاب « البخلاء » ص ٤٣ .

(٣) كناية عن البخلاء .

(٤) التحاب : مصدر تحابّ : أحب كل واحد صاحبه .

(٥) الصناع : الحاذقة فى الصنعة .

(٦) المروى : نسبة إلى بلدة فى العراق على شط الفرات كانت مشهورة بصناعة الثياب .

(٧) المعصفر : المصبوغ بالعصفر (وهو صبغ أصفر اللون) من الثياب .

(٨) الختن : الصهر

(٩) الأحماء جمع حمو : أبو زوج المرأة وأبو امرأة الرجل .

فقال لها زوجها : أنَّى هذا يا مريم ؟ قالت : هو من عند الله ! قال : دعى عنك الجملة ، وهاتى التفسير ، والله ما كنت ذات مال قديماً ، ولا ورثته حديثاً ، وما أنت بخائنة فى نفسك ، ولا فى مال بعلك[1] ، إلا أن تكونى قد وقعت على كَنْز ؛ وكيف دار الأمر فقد أسقطتِ عنى مؤونة ، وكفَيْتنِي هذه النائبة ! قالت : اعلم أنى منذ يوم ولدتُها ، إلى أن زوَّجتها ، كنت أرفع من دقيق كل عجنة حَفنة[2] ، وكنا كما قد علمت نخبز فى كل يوم مرة ، فإذا اجتمع فى ذلك مكوك[3] بعتُه . قال زوجها : ثبّت الله رأيك ، وأرشدك ، ولقد أسعد الله من كُنْتِ له سكناً ، وبارك لمنْ جُعِلْتِ لَهُ إلفاً[4] .

المِسرجة والقنديل

قال مثنى بنُ بشير : دخل أبو عبد الله المروزىّ على شيخٍ من أهلِ خراسانَ ، وإذ هو قد استصبح فى مِسْرَجةٍ[5] خزَف من هذه الخزفية الخُضْر ، فقـال له الشيخُ : لا يجىء والله مِنكَ أمرٌ صالحٌ أبدًا ، عاتبتُك فى مَسَارج[6] الحجارةِ ، فأعْتبتنى[7] بالخزَف ! أوَ ما علمتَ أنَّ

---

(١) البعل : الزوج .
(٢) الحفنة : ملء الكفين .
(٣) المكوك : معيار يكال به والأصل أنه طاس يشرب به .
(٤) من كتاب « البخلاء » ص ٥٢ .
(٥) المسرجة : السراج .
(٦) المسارج : جمع مسرجة
(٧) أعتبه : أرضاه

الخزَف والحجارة يحْسُوانِ[١] الدُّهنَ حسوًا ؟ قال : جُعِلْتُ فِداكَ ! دفعتُها إلى صديقٍ لى دهَّان فألقاها فى المِصفاةِ شهرًا حتّى رَوِيَتْ من الدُّهن رِيًّا لا تحتاجُ مَعَه أبدًا إلى شىء ! قال : ليس هذا أريدُ ، هذا دواؤهُ يسيرٌ ، وقد وَقَعْتُ عليه ، ولكن ما علمت أن موضعَ النـارِ من المِسْرَجَةِ فى طَرَف الفَتِيلةِ لاينفكُّ من إحراقِهِ النارُ وتجفيفه وتنشيف ما فيه ، ومتى ابْتَلَّ بالدُّهن وتسقّاهُ ، عادت النارُ عليه ، فأَكَلَتْهُ ، هـذا دأبُهما ، فلو قِسْت ما يشرب ذلك المكانُ من الدُّهنِ ، بما يستمدُّه طرَفُ الفَتيلةِ منه ، لعلمتَ أنَّ ذلك أكثرُه . وبعد هذا فإنَّ ذلك الموضعَ من الفَتيلةِ والمِسرَجَةِ لا يزالُ سائلًا جارياً . ويُقالُ إنَّكَ متى وضعتَ مسرجةً فيها مصباحٌ ، وأُخرى لا مصباحَ فيها ، لم تلبثْ إلا ليـلة أو ليلتين ، حتّى ترى السُّفلى ملآنةً دُهناً . واُعْتَبِرْ أيضاً ذلك بالمِلْحِ الَّذى يوضَعُ تحت المِسْرَجَةِ ، والنُّخالةِ[٢] الَّتى تُوضَع هُنَاكَ لتسويتها وتَصْويبها ، كيف تجدها ينعصرانِ دهناً . وهـذا كلُّه خسرانٌ وغبنٌ ، لا يَتَهاوَنُ بِهِ إلّا أصحابُ الفسادِ . على أنَّ المُفْسِدينَ إنَّما يُطْعِمُونَ النَّاسَ ، ويَسْقُون النَّاسَ ، وهُمْ على حالٍ يستخلفون شيئاً ، وإن كان رَوْثاً[٣] . وأنت إنما تُطعِمُ النَّارَ وتَسْقِى النَّارَ . ومَنْ أطْعَمَ النَّارَ ، جَعَلَهُ الله يوم القِيامةِ طَعَاماً للنَّار ! قالَ الشيخُ : فكيفَ أصنَعُ ، جُعِلْتُ فِداك ؟ قال : تَتَّخِذُ قِنديلًا ، فإنَّ الزُّجاجَ أحْفَظُ من غيره ، والزُّجاج لا يعرفُ الرَّشْحَ

(١) حسا : شرب .

(٢) النخالة : ما بقى فى المنخل من القشر ونحوه .

(٣) الروث : الزبل .

ولا النَّشَفَ ولا يَقبَلُ الأَوساخَ الَّتى لا تزول إلّا بالدَّلْك الشَّديدِ ، أو بإحراق النَّارِ . وأيُّهما كان ، فإنَّه يُعيدُ المِسرَجَةَ إلى العَطَشِ الأوَّلِ ، والزجاجُ أبقَى على الماء والتّرابِ من الذَّهبِ الإبْريز ، وهو مع ذلك مصنوعٌ ، والذَّهبُ مَخلُوقٌ ، فإنْ فضَّلْتَ الذَّهبَ بالصَّلابةِ ، فضَّلتُ الزُّجاجَ بالصَّفاء . والزّجاجُ مُجلٍّ والذّهبُ ستَّار ، ولأنَّ الفَتيلةَ إنَّما تكونُ فى وَسَطِهِ ، فلا تَحمَى جوانبُه بوَهَج المصباحِ ، كما تَحْمَى بموضعِ النَّارِ من المِسْرجةِ . وإذا وقع شعاعُ النَّارِ على جوهر الزُّجاجِ ، صار المصباحُ والقِنديلُ مصباحاً واحدًا ، وردَّ الضياء كلٌّ واحدٍ منْهُما على صاحبِه . واعتبرْ ذلك بالشُّعاع الَّذى يسقطُ على وجهِ المرآةِ ، أو على وجهِ الماء ، أو على الزُّجاجةِ ، ثمَّ انْظُرْ كيف يتضاعفُ نُورُهُ ، وإن كان سقوطُه على عينِ إنسانٍ أعْشاهُ[١] وربَّما أعماه ، وقال جلَّ ذِكرُه : « اللهُ نورُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْباحٌ المِصْباحُ فى زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّها كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُها يُضِىءُ وَلَو لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِى اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يشاء » والزيت فى الزُّجاجةِ نورٌ على نورٍ ، وضوءٌ على ضوءٍ مضاعفٍ ، هذا مع فضلِ حُسْنِ القِنديلِ على حُسْنِ مَسَارجِ الحجارةِ والخزف[٢] .

---

(١) أعشاه : جعله أعشى أى سيء البصر .

(٢) كتاب « البخلاء » ص ٣٦ .

معـــاذة العنبرية

حدّث شيخ قال : لم أرَ فى وضع الأمور مواضعَها ، وفى توفيتها غاية حقوقها كمعاذة العنبريّة . . . أهدَى إليها ، العـام ، ابن عم لها أُضحيَّة فرأيتها كئيبة حزينة ، مفكرة مطرقة . فقلت لها : « مالك يا معاذة ؟ » قالت : « أنا امرأة أرملة ، وليس لى قيّم[1] ، ولا عهد لى بتدبير لحم الأضاحىّ . وقد ذهب الذين كانوا يدبّرونه ويقومون بحقه . وقد خفت أن يضيع بعض هذه الشاة ، ولست أعرف وضع جميع أجزائها فى أماكنها . وقد علمت أن الله لم يخلق فيها ولا فى غيرها شيئاً لا منفعة فيه ؛ ولكن المرء يعجز، لا محالة[2] . ولست أخاف من تضييع القليل ، إلا أنه يجرُّ تضييع الكثير . أما القرن فالوجه فيه معروف ، وهو أن يجعل كالخُطَّاف[3] ، ويسمَّر فى جذع[4] من جذوع السقف ، فيعلَّق عليه الزُّبل[5] والكيران[6] وكل ما خيف عليه من الفأر والنمل والسنانير وبنـات وَرْدان[7] والحيات ، وغير ذلك . وأما المصران فإنه لأوتار

(١) قيم المرأة : زوجها ومن يقوم بأمرها .

(٢) هذا مثل ، ومعناه : لا تضيق الحيل ومخارج الأمور إلا على العاجز .

(٣) الخطاف : الحديدة العوجاء .

(٤) الجذع : ساق النخلة والشجرة ؛ وعلى الجذوع يبنى سقف البيت .

(٥) الزبل جمع زبيل ، وهو القفة أو الجراب أو الوعاء .

(٦) الكيران جمع كور : الرحل ، وهو ما يجعل على ظهر البعير كالسرج .

(٧) بنات وردان : دويبات كريهة الريح تألف الأماكن القذرة فى البيوت .

المِندفة[1] ؛ وبنا إلى ذلك أعظم الحاجة . وأما قحف الرأس[2] واللَّحيان[3] وسائر العظام فسبيله أن يُكسَّر بعد أن يُعرَّق[4] ، ثم يُطبخ ؛ فما ارتفع من الدسم كان للمصباح وللإدام[5] وللعصيدة[6] ، ولغير ذلك . ثم تؤخذ تلك العظام فيوقد بها ؛ فلم ير الناس وَقوداً قط أصفى ولا أحسن لهباً منها . وإذا كانت كذلك ، فهى أسرع فى القدر ، لقلة ما يخالطها من الدخان . وأما الإهاب[7] فالجلد نفسه جراب . والصوف وجوهٌ لا تُدفع . وأما الفَرْث[8] والبعر فحطب ، إذا جُفِّفَ ، عجيب . »

ثم قالت : « بقى علينا الانتفاع بالدم ؛ وقد علمتُ أن الله ، عزَّ وجلَّ ، لم يحرّم من الدم المسفوح[9] إلا أكله وشربه ؛ وأن له مواضع يجوز فيها ولا يُمنع منها . وإن أنا لم أقع على علم ذلك حتى يوضع موضع الانتفاع به ، صار كيَّة فى قلبى ، وقذى فى عينى ، وهمًّا لا يزال يُعاودنى . »

فلم ألبث أن رأيتها قد تطلَّقت[10] وتبسمت ، فقلت : « ينبغى أن

---

(١) المندف والمندفة : خشبة النداف التى يندف بها القطن .

(٢) قحف الرأس : العظم الذى فوق الدماغ .

(٣) اللحى : عظم الحنك الذى عليه الأسنان ، (وهما لحيان) .

(٤) عرق العظم : جرده من اللحم .

(٥) الإدام : ما يؤكل مع الخبز فيطيبه .

(٦) العصيدة : دقيق يلت بالسمن ويطبخ .

(٧) الإهاب : الجلد .

(٨) الفرث : الزبل الذى فى الكرش .

(٩) الدم المسفوح أى السائل ، محرم فى القرآن .

(١٠) تطلق الوجه : ضد انقبض ؛ يريد : أشرق وجهها وانبسط .

يكون قد انفتح لك باب الرأى فى الدم . » قالت : « أَجل ، ذكرت أن عندى قدوراً شامية جُدُداً . وقد زعموا أنه ليس شىء أدبغ ، ولا أزيد فى قوّتها من التلطيخ بالدم الحار الدسم . وقد استرحت الآن ، إذ وقع كل شىء موقعه . »

قال : ثم لقيتها بعد ستة أشهر ، فقلت لها : « كيف كان قديد[١] تلك الشاة ؟ » قالت : « بأبى أنت ! لم يجئ وقت القديد بعد . لنا فى الشحم والألية والجنوب[٢] والعظم المعروق وغير ذلك معاش ؛ ولكل شيء إبّان[٣] . »[٤]

الرّيح والشمسُ تأخذان مِنْ سائِرِ الأشياء

قال خاقان بنُ صبيح : دخلت على رجل من أهل خراسانَ ، وإذا هُو قد أتانا بمِسْرجةٍ فيها فتيلةٌ فى غايةِ الدِّقّةِ ، وإذا هو قد ألقى فى دُهنِ المِسرجةِ شيئاً من مِلحٍ ، وقد علّقَ على عمودِ المَنَارةِ عوداً بخيط ، وقد حزّ فيهِ حتّى صار فيه مكانٌ للرِّباط . فكان المصباحُ إذا كاد يَنْطفِئ أشْخَصَ رأسَ الفَتيلةِ بذلك . قال : فقلت له : ما بالُ العودِ مربوطاً ؟ قال هذا عودٌ قد تشرّب الدُّهنَ ، فإن ضاع ولم يُحفَظْ ،

---

(١) القديد : اللحم الذى جعل قطعاً وجفف فى الشمس مملوحاً .

(٢) الجنوب ج جنب .

(٣) إبان الشىء : أوانه وحينه .

(٤) من كتاب « البخلاء » .

احتَجْنا إلى واحدٍ عطشان ، فإذا كان هذا دأبَنا ودأْبَه ضاعَ من دُهْنِنا في الشَّهرِ بقَدْرِ كِفَايةِ ليلةٍ ! قال : فبينا أنا أتعجّب في نفسي وأسألُ اللهَ جلّ ذِكرُه العافيةَ والسّتْرَ ، إذ دخل شيخٌ من أهل مَرْو ، فنظر إلى العود فقال : يا أبا فلان ! فَرَرْتَ من شيء ووقعت في شبيهٍ به ! أما تعلمُ أنَّ الرِّيحَ والشَّمسَ تأخذان من سائرِ الأشياء ؟ أوَ ليس قد كان البارحةَ عند إطفاء السِّراجِ أرْوَى[1] وهو عند إسراجِك الليلةَ أعطشَ ؟ قد كنتُ أنا جاهلاً مثلَك حتَّى وفّقني اللهُ إلى ما هو أرْشَدُ : اربِطْ — عافاك اللهُ — بدَلَ العودِ إبرةً أو مِسَلَّةً[2] صغيرةً ، وعلى أن العود والخلال[3] والقصبة ربما تعلّقت بها الشعرةُ من قطن الفتيلة إذا سويناها بها ، فتَشخصُ بها ، وربّما كان ذلك سبباً لانطِفاء السِّراجِ ، والحديدُ أملسُ ، وهو مع ذلك غيرُ نشَّافٍ . قال خاقان : ففي تلك الليلةِ عرفتُ فضلَ أهلِ خراسانَ على سائرِ الناس ، وفَضْلَ أهلِ مرو على سائر أهل خراسان[4] .

---

(١) أروى : أكثر ريا .

(٢) المسلة : الإبرة الكبيرة .

(٣) الخلال : الأعواد الدقيقة .

(٤) من كتاب « البخلاء » ص ٣٥ .

٤ ـ الجاحظ رجل العلم والأدب

تقسيم مخلوقات العالم

وأقول : إن العالم بما فيه من الأجسام على ثلاثة أنحاء : مُتّفِق ، ومختلف ، ومتضادّ . وكلّها فى جملة القول : جمادٌ ، ونامٍ . وكان حقيقة القول فى الأجسام من هذه القسمة أن يُقال : نامٍ ، وغير نامٍ . ولو أن الحكماء وضعوا لكل ما ليس بنامٍ اسماً كما وضعوا للنامى اسماً ، لاتبعنا أثرهم ؛ وإنما ننتهى إلى حيث انتهوا . وما أكثر ما[1] تكون دلالة قولهم : « جماد » كدلالة قولهم : « مَوَات » ؛ وقد يفترقان فى مواضع بعض الافتراق .

وإذا خرجت من العالم إلى الأفلاك ، والبروج ، والنجوم ، والشمس ، والقمر ، وجدتَها غير نامية . ولم تجدهم يسمّون شيئاً منها بجماد ، ولا موات . وليس لأنها تتحرّك من تلقاء أنفسها ، لم تُسَمّ مواتاً ولا جماداً . وناسٌ يجعلونها مُدْبِرَة ، وناسٌ غيرَ مُدْبِرة . ويجعلونها مسخَّرة وغير مُسَخَّرة ، ويجعلونها أحياء من الحيوان ، إذ كان الحيوان إنما يحيا بإحيائها له ، وبما تعطيه وتُعيره . وإنما هذا منهم رأى . والأممُ ، فى هذا كله ، على خلافهم . ونحن ، فى هذا الموضع ، إنما نعبّر عن لغتنا ؛ وليس فى لغتنا إلا ما ذكرنا .

والناس يسمّون الأرض جماداً ، وربما يجعلونها مواتاً ، إذا كانت لم

---

(١) ما الأولى : تعجبية . وما الثانية : مصدرية .

تُنبت قديماً ، وهى مواتُ الأرض . وذلك كقولهم : « من أحيا أرضاً مواتاً ، فهى له . » وهم لا يجعلون الماء ، والنار ، والهواء ، جماداً ولا مواتاً ، ولا يسمّونها حيواناً ، ما دامت كذلك ؛ وإن كانت لا تُضاف إلى النماء والحسّ .

والأرض هى أحد الأركان الأربعة التى هى : الماء ، والأرض ، والهواء ، والنار . والاسمان لا يتعاوران عندهم إلّا الأرض .

ثم النامى على قسمين : حيوان ، ونبات .

والحيوان على أربعة أقسام : شيء يمشى ، وشيء يطير ، وشيء يسبح ، وشيء ينساح[1] . إلّا أن كل طائر يمشى ؛ وليس الذى يمشى ولا يطير يسمّى طائراً .

والنوع الذى يمشى على أربعة أقسام : ناس ، وبهائم ، وسباع ، وحشرات . على أن الحشرات راجعة فى المعنى إلىْ مشاكلة طباع البهائم والسباع[2] ...

قوّة الحيّـــة

وليس فى الأرض شيء جسمُه مثلُ جسم الحيــة إلّا والحيةُ أقوى بَدَناً منه أضعافاً . ومن قوّتها أنهـا إذا أدخلتْ رأسها فى جُحْرها أو فى صَدْع[3] ، إلى صدرها ، لم يستطع أقوى الناس ، وهو قابضٌ على

(١) ينساح . يمشى على بطنه .
(٢) من كتاب « الحيوان » المقدمة — الجزء الأول ص ٣٦ — ٣٧ .
(٣) الصدع : الشق فى شيء صلب .

ذَنبها بكِلْتا يديه ، أن يخرجها ، لشدة اعتمادها ، وتعاون أجزائهـا . وليست بذى قوائم لهـا أظفار ، أو مخالب لها أظلاف[١] ، تنشبها فى الأرض تتشبّث بها وتعتمد عليها . وربما انقطعت فى يد الجاذب لها من أنها لدنة[٢] ، ملساء ، عَلِـكَة[٣] . فيحتاجُ الرفيق فى أمرها ، عند ذلك ، أن يُرْسلها من يديه بعضَ الإرسال ، ثم يَنْشُطَها[٤] كالمختطف، والمختلس ، وربما انقطع ذنبها فى يد الجاذب لها .

فأمّا أذناب الأفاعى فإنها تَنْبت . ومن عجيب ما فيها ، من هذا الباب أن نابها يُقطع فينبت ، حتى يَتم نباته فى أقلّ من ثلاث ليال !

والخطّاف ، فى هـذا الباب ، خلاف الخنزير . لأن الخطّاف إذا قلعت إحدى عينيه رجعت ، وعين البِرذَون[٥] يركبها البياض فيذهب فى أيام يسيرة . وناب الأفعى يُحْتال له بأنْ يُدخل فى فيها حماض أُترُجّ[٦] ويطبق لَحْيَيْها الأعلى على الأسفل ، فلا تقتل بعضّتها أياماً صالحـة . والمغناطيسُ الجاذب للحديد إذا حُكّ عليه الثوم لم يجذب الحـديد . والأفعى لا تدور عينُها فى رأسها ، وهى تلد وتبيض ؛ وذلك أنَّها إذا طرقت بيضها تحطَّم فى جوفها ، فترمى بفِراخها أولاداً ، حتّى كأنها من الحيوان الذى يلد حيواناً مثله .

---

(١) الأظلاف : جمع ظلف : الظفر لما اجترّ من الحيوان كالبقرة والظبى .
(٢) لدنة : لينة .
(٣) العلك : اللزج .
(٤) نشطه : نزعه ، شله .
(٥) البرذون : التركى من الخيل وهو خلاف العراب .
(٦) ثمر شجر بستانى من جنس الليمون .

وفى الأفاعى من العجب أنهـا تُذبح حتى يُفرى[١] منها كل ودج[٢] ؛ فتبقى كذلك أياماً لا تموت . فأمرتُ الحاوى[٣] ، فقبض على خرزة عنقها فقلت له : اقبضها من الخرزة التى تليها قبضاً رفيقاً . فما فتح بينها بقدر سم[٤] الإبرة حتى بردت ميتة . وزعم أنه قد ذَبَح غيرها من الحيّات ، فعاشت على شَبهٍ بذلك . ثم إنه فصل تلك الخرزة على مثال ما صنع بالأفعى ، فماتت بأسرع من الطَّرْف[٥] .

عَيْن الأفعى

وزعم محمد بن الجهم أن العيون التى تضىء بالليـل كأنها مصابيح : عيون الأسد ، والنمور ، والسنانير ، والأفاعى . فبينا نحن عنده ، إذ دخل عليه بعض من يجلب الأفاعى من سِجِسْتان ، ويعمل الترياقات[٦] ، ويبيعها أحياء ومعمولة ، فقال له : حدّثهم بالذى حدّثتنى به من عين الأفعى ! . قال :

نعم ! كنت فى منزلى نائماً فى ظلمة ، وقد كنت جمعت رؤوس أفاعٍ كنّ عندى لأرمى بها . وأغفلتُ تحت السَّرِيرِ رَأْساً واحـداً . ففتحتُ عَيْنى تجاه السرير الذى فى الظلمة ، فرأيتُ ضياء ، إلا أنّه

---

(١) فرى الشىء : قطعه .
(٢) الودج : عرق إلى جانب ثغرة النحر ؛ وهما ودجان يميناً وشمالا .
(٣) الحاوى : الذى يربى الحيات .
(٤) سم الإبرة : ثقبها .
(٥) من كتاب « الحيوان » .
(٦) الترياقات : جمع ترياق : دواء يدفع السموم .

ضئيل ، ضعيف ، دقيق . فقلت : « عين غول ! أو بعض أولادِ السَّعالى[1] » وذهبت نفسى فى ألوان مِن المعانى ؛ فقمت فقدحْتُ ناراً ، وأَخَذْتُ المصباح معى ، ومضيتُ نحو السرير . فلم أجد تحته إلا رأسَ أفعى . فأطفأتُ السِّراج و نِمْت ؛ وفتحتُ عينى فإذا ذلك الضوء على حاله . فنهضتُ ، فصنعتُ كصنيعى الأول ، حتى فعلتُ ذٰلِك مراراً . (قال) فقلت لآخِر مرة : « لا أرى شيئاً إلا رأس أفعى ، فلو نحَّيْتُه ! » فنحَّيْتُه ، وأطفأت السراج ، ثم رجعتُ إلى منامى . ففتحتُ عينى فلم أرَ الضوء ، فعلمتُ أنَّه من عين الأفعى . ثم سألتُ عن ذلك ، فإذا الأمر حقٌ ، وإذا هو مشهورٌ فى أهل هذه الصناعة[2] .

حكمة الحيّـــــة

حدَّثنا أبو جعفر المـكفوف[3] النَّحْوىُّ العنبرى ، وأَخوه رَوْحٌ الـكاتب ، ورجالٌ من بنى العنبر : أَن عندهم ، فى رمال بَلْعَنْبَر[4] ، حيةً تصيد العصافير وصغار الطير بأعجب صيدٍ . زعموا أَنها إذا انتصف النهارُ واشـتدَّ الحرُّ فى رمال بَلْعَنْبَر ، وامتنعت الأرض على الحافى والمنتعِل ، ورمض[5] الجندب ، غمست هذه الحية ذنبها فى الرمل ، ثم

---

(١) السعالى جمع سعلاة وهى أنثى الغول .

(٢) من كتاب « الحيوان »

(٣) المكفوف : الأعمى .

(٤) بلعنبر : أى بنو العنبر ، فخفف كما يخفف بلعم وبلحرث وبلقين أى بنو العم وبنو الحرث وبنو القين ؛ وذلك يختص بالأحرف القمرية .

(٥) رمض : احترق من شدة الحر .

اُنتصبت كأنها رمحٌ مركوزٌ أو عودٌ ثابتٌ . فيجيء الطَّائر الصغير أو الجرادةُ ؛ فإذا رأى عوداً قائماً ، وكره الوقوع على الرمل لشدَّة حرّه ، وقع على رأس الحيَّة ، على أنها عودٌ ؛ فإذا وقع على رأسها ، قبضت عليه . فإن كان جرادةً أو جُعَلًا[1] أو بعض ما لا يشبعها مثله ، اُبتلعته وبقيت على اُنتصابها ؛ وإن كان الواقع عَلَى رأسها طائراً يُشبعها مثله ، أكلته واُنصرفت . وإنَّ ذلك دأبها ما منَع الرملُ جانبه فى الصيف والقيظ ، فى انتصاف النهار والهاجرةِ[2] . وذلك أنَّ الطائر لا يشكُّ أن الحية عود ، وأنه سيقوم له مقامَ اُلجذْلِ[3] للحرباء ، إلى أن يسكن الحر ووَهج الرمل .

وفى هذا الحديث من العجب أن تكون هذه الحيَّة تهتدى لمثل هذه الحيلة ؛ وفيه جهلُ الطائر بفرق ما بين الحيوانِ والعود ؛ وفيه قلّة اكتراث الحية للرمل الذى عاد كالجمر ، وصلح أن يكون ملَّة[4] وموضعاً للخبزة ؛ ثم أن يشتمل ذلك الرمل على ثلث الحية ساعاتٍ من النهار ، والرملُ على هذه الصفة . فهذه أُعجوبة من أعاجيب ما فى الحيَّات[5] .

---

(١) الجعل : دويبة سوداء ذات جناحين سوداوين تطير بهما ؛ قيل حياته فى الزبل ويضر به ريح الورد إذا جعل تحته .

(٢) الهاجرة : انتصاف النهار وشدة الحر ، لأن الناس يستكنون إذ ذاك فى بيوتهم كأنهم قد تهاجروا .

(٣) الجذل : عود ينصب للإبل الجربى لتحتك به .

(٤) الملة : الرماد الحار ، وخبز الملة : ما يخبز فى ذلك الرماد .

(٥) من كتاب « الحيوان » .

وفاء الكلب

قال أبو عُبيدة : خرج رجلٌ إلى الجَبَّان[١] ينتظر رِكابه[٢] ، فاتَّبعه كلبٌ كان له ، فضرب الكلب وطرده ، وكره أن يتَّبعه ، ورماه بحجرٍ . فأبى الكلب إلا أن يتبعه . فلمَّا صار إلى الموضع الذى يريد فيه الانتظار ، ربض الكلب قريباً . فبينما هو كذلك ، إذ أتاه أعداءٌ له يطلبونه بطائلةٍ[٣] لهم عنده . وكان معه جارٌ له وأخوه دِنيا[٤] فأسلماه وهربا عنه . فجُرح جراحاتٍ ، ورمى به فى بئر غير بعيدة القعر ؛ ثُمَّ حُثِي عليه[٥] التراب ، ثُمَّ غُطى رأسه ، ثم كُمِّمَ[٦] فوق رأسه منه[٧] ؛ والكلب فى ذلك يرخم[٨] ويهر[٩] . فلمَّا انصرفوا أتى رأس البئر؛ فما زال يعوى ،

---

(١) الجبان : الصحراء .

(٢) الركاب : الإبل .

(٣) الطائلة : التِّرة ، والظلم ، والثار .

(٤) تقول : هو ابن عم أو عمة ، او ابن خال أو خالة ، أو ابن أخ أو أخت دنى ودنيا ودنية : أى هو ابن عم لحا أى لاصق النسب ، وكذا ما يليه ؛ فإن ضمت الدال فى « دنيا » لم تصرف لأن الألف قد تعينت للتأنيث على الأصل ؛ وإن كسرت جاز صرفها وعدمه ، لجواز أن الألف للتأنيث أو للإلحاق ؛ أما إذا أضيف « العم » وما بعده إلى معرفة ، كما إذا قيل : « هو ابن عمى » ، وجب النصب على الحال ، فيقال : « هو ابن عمى دنيا » ، لأن « دنيا » نكرة ، فلا تكون نعتا لمعرفة .

(٥) حثا عليه التّراب : قبضه ورماه عليه ، وصبه عليه .

(٦) كم : جمع .

(٧) منه : أى من التّراب .

(٨) يرخم : يرق له .

(٩) هر الكلب : صات دون نباح .

وينبش عنه ، ويحثو التراب بيده ، ويكشفه عن رأسه ، حتى أظهر رأسَهُ فتنفس ، ورُدَّت إليه الروحُ ، وقد كاد يموت ، ولم يبق منه إلّا حُشاشةٌ[١] . فبينما هو كذلك ، إذ مرَّ ناسٌ ، فأنكروا مكان الكلب ، ورأوه كأنه يحفر عن قبرٍ . فنظروا ، فإذا هم بالرجل على تلك الحال ، فاستشالوه[٢] ، فأخرجوه حيًّا ، وحملوه ، حتى أدَّوه إلى أهله[٣]

كلب يحسب لصاً

قال بِشرُ بن سعيد : كان بالبصرة شيخ من بنى نَهشَلٍ[٤] يقال له عُرْوَةُ بن مَرْثَدٍ ، نزل ببنى أُختٍ له فى سِكَّةِ[٥] بنى مازنٍ[٦] وبنو أُخته من قُرَيْش . فخرج رجالهم إلى ضياعهم ، وذلك فى شهر رمضان ، وبقيت النساء يُصلِّين فى مسجدهم ، فلم يبق فى الدار إلّا كلبٌ يَعُسُّ[٧] فرأى بيتاً ، فدخل ، وانصَفَقَ[٨] البابُ ، فسمع الحركة بعض الإماء ، فظنَنَّ أنَّ لصًّا دخل الدار ، فذهبت إحداهنَّ إلى أبي الأعزّ ، وليس فى الحيّ رجلٌ غيرُه ، فأخبرته فقال أبو الأعزّ : « ما يبتغى اللصُّ منَّا ؟ »

---

(١) الحشاش والحشاشة : بقية الروح فى المريض والجريح .

(٢) استشالوه : رفعوه .

(٣) من كتاب الحيوان .

(٤) نهشل بن دارم : بطن من تميم .

(٥) السكة : الموضع الذى فيه دور مختلفة ومنازل متعددة لقوم يسكنون فيه ، وفى خلالها طريق وسبيل لهم .

(٦) بنو مازن : من بنى تميم .

(٧) عس : طاف فى الليل يحرس الناس ويكشف أهل الريبة ؛ وهنا : يطوف ليلا .

(٨) انصفق : ارتد وانغلق .

ثم أخذ عصاه ، وجاء حتى وقف على باب البيتِ ، فقال : « إيه[١] يا ملأمانُ[٢] ! أما والله إنك بي لَعارفٌ ، وإني بك أيضاً لعارفٌ ، فهل أنت إلّا من لصوص بني مازن ، شرِبْتَ حامضاً خبيثاً[٣] ، حتى إذا دارت الأقداح في رأسِك ، منّتك نفسك الأمانيّ[٤] ، وقلت : دورَ بني عمرو[٥] ، والرجال خُلوف[٦] ، والنساء يُصلِّين في مسجدهنّ ، فأسرقهن[٧] . سَوءَةٌ واللهِ ! ما يفعل هذا الأحرارُ ! لَبِئسَ ، والله ، ما منّتك نفسك ! فاخرج ، وإلا دخلتُ عليك ، فصرمتْكَ مني العقوبة[٨] ! لَأَيْمُ اللهُ[٩] لتخرُجَنّ ، أو لَأَهتِفنّ هِتفةً مشؤومةً عليك ، يلتقي فيها الحيّان عمرو وحنظَلَةُ[١٠] ، ويصير أمرك إلى تبابٍ[١١] . ويجيء سعدٌ[١٢] بعددِ الحصى ، ويسيل عليك الرجالُ من ها هنا وها هنا ! ولئن فعلتَ ، لَتكونَنّ أشأم مولودٍ في بني تميم !

فلما رأى أنه لا يجيبه ، أخذ باللِّين ، وقال : اخرج يا بُنيّ ،

---

(١) إيه : كلمة زجر بمعنى حسبك .

(٢) يا ملأم ويا ملأمان : ياللئيم .

(٣) الحامض الخبيث : أي الحامض من الخمر .

(٤) مناه الشيء وبه : جعله يتمناه .

(٥) بنو عمرو : أي عمرو بن تميم .

(٦) الخلوف جمع خلف وهم الذين ذهبوا من الحي .

(٧) فأسرقهن : أي أسرق الدور .

(٨) أي عاقبتك عقاباً صارماً .

(٩) أيمن الله وأيم الله : اسم الله : اسم وضع للقسم ، والتقدير أيمن الله قسمي ؛ وليم الله وليمن الله (لايم ولايمن) : اللام فيهما لام الابتداء حذفت معها ألف الوصل إلا نادراً .

(١٠) حنظلة : حي من بني تميم .

(١١) التباب : الخسران والهلاك .

(١٢) سعد : هم بنو سعد بن زيد مناة من تميم .

وأنت مستورٌ ؛ إنى ، والله ، ما أُراكَ تعرفنى ، ولو عرفتنى لقد قنعت بقولى ، واطمأننتَ إلىّ . أنا عُروةُ بنُ مرثَدٍ أبو الأعزّ المرثدىُّ ، وأنا خال القوم ، وجلدة ما بين أعيُنهم[١] لا يعصوننى فى أمرٍ ؛ وأنا لك بالذِّمَّة كفيلٌ خفيرٌ[٢] ، أُصيِّرُكَ بين شحمة أُذنى وعاتقى[٣] لا تُضار[٤] . فاخرج ، فأنت فى ذمتى ، وإلَّا ، فإنَّ عندى قَوْصَرَّتَيْن[٥] : إحداهما إلى ابنِ أُختى البارِّ الوَصولِ[٦] ، فخذ إحداهما ، فانتَبِذْها[٧] حلالاً من الله تعالى ورسوله .

وكان الكلب إذا سمع الكلام أطرق[٨] ، وإذا سكت ، وثب يُريغ[٩] المخرج . فتهانف الأعرابىّ ، أى تضاحك ، ثُم قال : يا ألأم الناس وأوضعهم ، ألا يأنى لك[١٠] أنَّا منذ الليلةِ فى وادٍ ، وأنت فى آخر ! إذا قلت لك السوداء والبيضاء[١١] ، تسكت وتطرق ؛ فإذا سكتُّ عنك ، تُريغ المخرج ! واُلله لتخرجنّ بالعفو عنك ، أو لألِجَنّ عليكَ البيت بالعقوبة !

---

(١) يقال : هو جلدة ما بين العينين : أى هو مثلها فى العزة والقرب .

(٢) الخفير : المجير والحامى والمحافظ .

(٣) العاتق : الكتف ؛ يقال : صيره بين شحمة أذنه وعاتقه أى فى عنقه ، أى فى ذمته .

(٤) ضاره الأمر : أضر به .

(٥) القوصرة : وعاء من قصب يجعل فيه التمر ونحوه .

(٦) الوصول : الكثير الوصل وهو البر والعطاء .

(٧) انتبذها : اصنعها لك نبيذاً .

(٨) أطرق : سكت .

(٩) أراغ : لغة فى أراد .

(١٠) ألا يأنى لك : أى أما حان لك (أن تعرف) .

(١١) إذا قلت لك السوداء والبيضاء : إذا قلت لك كلمة تسوءك أو تسرك .

فلما طال وقوفه ، جاءت جاريةٌ من إماءِ الحيِّ ، فقالت : أعرابيٌّ مجنون ! وأللّه ما أرى فى البيت شيئاً ! ودفعتِ ألباب ، فخرج الكلب شَدّاً[1] ، وحاد عنه أبو الأَعز مُستلقياً ، وقال : الحمد لله الذى مسخك كلباً ، وكفانى منك حرباً ! ثم قال تالله ، ما رأيت كالليلة . ما أُراه إلّا كلباً . أما والله ، لو علمتُ بحاله لولجت عليه[2] .

الذباب والبعوض

ذكر محمَّدُ بن الجهم فيما خبرني عنه به بعض الثِّقات أنه قال لهم ذات يومٍ : هل تعرفون الحكمة التى استفدناها فى الذباب ؟ قالوا : لا . قال : بلى ، إنهـا تأكل البعوض وتصيده وتلقُطُه وتُفنيه ؟ وذلك أنى كنتُ أُريد القائلة[3] ، فأَمرت بإخراج الذباب ، وطرح الستر ، وإغلاق الباب ، قبل ذلك بساعةٍ . فإذا خرجن ، حصل فى البيت البعوضُ ، وقوى سلطانه . فكنت أدخلُ إلى القائلة ، فيأكلنى البعوض أكلًا شديداً . فأَتيت ذات يوم المنزلَ فى وقت القـائلة ، فإذا ذلك البيت مفتوح ، والستر مرفوع ؛ وقد كان الغلمان أغفلوا ذلك فى يومهم . فلما أُضطجعت للقائلة لم أجد من البعوض شيئاً ؛ وقد كان غضبى اشتدَّ على الغلمان ، فنمت فى عافية . فلما كان من الغد ، عادوا إلى إغلاق الباب ،

---

(١) شدا : عدواً .

(٢) من كتاب « الحيوان » .

(٣) القائلة : النوم فى نصف النهار .

وإخراج الذباب . فدخلت ألتمس القائلة ، فإذا البعوضُ كثيرٌ . ثم أغفلوا إغلاق الباب يومًا آخر ؛ فلما رأيته مفتوحًا ، شتمتُهم ؛ فلما صرت إلى القائلة ، لم أجد بعوضةً واحدة . فقلت فى نفسى عند ذلك : أُرانى قد نمت فى يومَىْ الإغفال والتضييع ، وأُمتنع منى النوم فى أيام التحفُّظ والاحتراس ؛ فلمَ لا أُجرِّب ترك إغلاق الباب فى يومى هذا ، فإن نمت ثلاثة أيام لا ألقى من البعوض أذًى مع فتح الباب علمتُ أن الصواب فى الجمع بين الذِّبّان والبعوض ؛ فإن الذّبان هى التى تفنيه ؛ وأن صلاح أمرنا فى تقريب ما كنّا نباعد . ففعلتُ ذلك ، فإذا الأمر قد تَمّ . فصرنا إذا أردنا إخراج الذِّبّان ، أخرجناها بأيسر حيلة ؛ وإذا أردنا إفناء البعوض ، أفنيناها على أيدى الذبّان بأيسر حيلة .

القاضى والذُّباب

ثم رجع بنا القول إلى إلحاح الذبان .

كان لنا بالبصرة قاضٍ يقال له عبد الله بن سَوّار ، لم يرَ الناس حاكماً قط زِمّيتاً(١) ، ولا ركيناً(٢) ، ولا وقوراً حليمًا ، ضبط من نفسه ، وملك من حركته مثل الذى ضبط وملك . كان يصلى الغداة فى منزله ، وهو قريب الدار من مسجده فيأتى مجلسه فيحتبى(٣) ولا

---

(١) الزميت : الكثير الوقار .

(٢) الركين : الرزين .

(٣) احتبى : جمع بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها .

يتكئ . فلا يزال منتصباً لا يتحرك له عضو ، ولا يلتفت ، ولا يَحِلّ حُبُوته ، ولا يُحِلُّ رِجْلاً على رِجْل ، ولا يعتمد على أحد شِقَّيْهِ[١] ، حتى كأنه بناء بنى أو صخرة منصوبة . فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى صلاة الظهر . ثم يعود إلى مجلسه ، فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى العصر . ثم يرجع لمجلسه ، فلا يزال كذلك حتى يقوم لصلاة المغرب . ثم ربما عاد إلى محله ؛ بل كثيراً ما كان يكون ذلك ، إذا بقى عليه من قراءة العهود والشروط والوثائق . ثم يصلى العِشاء ، وينصرف . فالحق يقال لم يقم ، فى طول تلك المدة والولاية ، مرةً واحدةً إلى الوضوء ، ولا احتاج إليه ، ولا شربَ ماء ولا غيره من الشراب . كذلك كان شأنُه فى طوال الأيام وفى قصارها ، وفى صيفها وفى شتائها . وكان مع ذلك ، لا يُحرِّك يده ولا يُشير برأسه ، وليس إلا أن يتكلَّم .

فبَيْنا هو كذلك ، ذات يوم ، وأصحابُه حواليه ، وفى السِّماطَيْن[٢] بين يديه ، إذ سقط على أنفه ذُباب . فأطال المكْث ، ثم تحوّل إلى مُوْقِ[٣] عينه . فرام الصبر فى سقوطه على المُوْق وعلى عضّه ونَفاذ خُرطومه ، كما رام من الصبر على سقوطه على أنفه ، من غير أن يُحرِّك أرنبته[٤] ، أو يُغضِّن وَجْهَه ، أو يذب[٥] بإصبعه . فلما طال ذلك عليه من الذباب وشَغَله ، وأوجعه ، وأحرقه ، وقصد إلى مكان لا يحتمل

---

(١) الشقان : الجانبان .
(٢) أى منتظمين بالقرب منه .
(٣) مؤق العين : طرفها مما يلى الأنف .
(٤) أرنبة الأنف : طرفه .
(٥) ذب : دفع ورد .

التغافل ، أطبقَ جَفْنه الأَعْلى على جفنه الأَسفل ؛ فلم يَنْهَضْ . فدعاه ذلك إلى أن يُوالى بين الإطباقِ والفتح ، فتنحَّى ريثما سكَنَ جَفْنه . ثم عاد إلى مُؤْقه بأشَدَّ من مرَّته الأولى ، فغمس خرطومه فى مكان كان قد أوهاه قبل ذلك . فكان احتمالُه له أضعف وعَجْزُه عن الصبر فى الثانية أقوى ، فحرَّك أجفانه ، وزاد فى شدَّة الحركة ، وألحَّ فى فتح العين ، وفى تَتابُع الفتح والإطباق . فتنحَّى عنه بقدر ما سكنت حركته . ثم عاد إلى موضِعه ، فما زال يُلحُّ عليه حتى أُستفرغَ صبره وبلغ مجهوده ، فلم يجد بدًّا من أن يذبَّ عن عينيه بيده . ففعل ، وعيون القوم إليه ، ترمقه ، وكأنهم لا يُريدونه . فتنحَّى عنه بقدر ما ردّ يده وسكنت حركتُهُ . ثم عاد إلى موضعه . ثم ألجأه إلى أن ذبَّ عن وجهه بطرف كمّه . ثم ألجأه إلى أن تابع بين ذلك ، وعلم أنَّ فِعْلَه كُلَّه بعين من حضرَه من أُمنائِه وجُلسائه . فلما نظروا إليه قال : « أشهد أن الذباب ألحُّ من الخنفساء ، وأزهى من الغُراب . وأَستغفرُ الله ! فما أكثر من أعجبَتْهُ نفسُه فأراد الله ، عزَّ وجلَّ ، أن يُعرِّفه مِنْ ضعفهِ ما كان عنه مستوراً ! وقد علمت أنى عند نفسى من أضعفِ الناس ، فقد غلبنى وفضَحنى أضعفُ خلقه . » ثم تلا قَوْلَهُ تعالى : « وإن يَسلبْهم الذبابُ شيئاً لا يستنقذوه منه ضَعُفَ الطالب والمطلوب ! » وكان بيّن اللسان قليل فُضول الكلام ؛ وكان مهيباً فى أصحابه ، وكان أحدَ من لم يُطعن عليه فى نفسه ولا فى تعريض أصحابه للمنالة[1] .

---

(١) من كتاب «الحيوان» الجزء ٣ ص ٣٤٣ .

إلحاح الذبّان على الجاحظ

فأما الذى أصابنى أنا من الذبّان ، فإنى خرجتُ أمشى من عند ابن المُبارك أريد دَيْر الربيع ، ولم أقدر على دابّة . فمررْتُ فى عشبٍ ونبات مُلْتفٍّ كثير الذبّان ، فسقط ذُباب من ذلك الذبّان على أنفى . فطردته ، فتحوّل إلى عينى . فزدت فى تحريك يدى . فتنحّى عنى بقدر شدة حركتى وذبّى[1] عن عينى — ولذبّان الكلأ والغياضِ والرياض وَقْع ليس لغيرها — ثم عاد إلىّ ، فعدتُ عليه . ثم عاد ، فعدتُ بأشدَّ من ذلك . فلما عاد استعمَلْت كمّى ، فذبَبْت به عن وجهى . ثم عاد ، وأنا فى ذلك أحثُّ السير[2] ، أؤمّلُ بسرعتى انقطاعَه عنى . فلما عاد نزعتُ طيلسانى[3] من عنقى ، فذبَبْتُ به عنى بدلَ كمّى . فلما غاود ، ولم أجد له حيلة ، استعملتُ العَدْوَ ، فعدوتُ منه شَوْطاً لم أتكلّف مثله مذ كنت صبيًّا . فتلقّانى الأندلسى فقال لى : « مالك ، يا أبا عثمان ؟ هل من حادثة ؟ » قلت : « نعم ! أريد أن أخرج من موضع للذبّان علىّ فيه سلطان . فضحك حتى جلس . وانقطع[4] عنى ، وما صدقت بانقطاعه عنى حتى تباعد جدًّا[5] .

(١) ذب : دفع وطرد .

(٢) حث السير : عجل فيه .

(٣) الطيلسان : كساء مدور أخضر لا أسفل له ، لحمته أو سداه من صوف ، يلبسه الخواص من العلماء والمشايخ . وهو من لباس العجم ؛ وهو لفظ معرب من «تالسان» الفارسية .

(٤) الضمير للذباب .

(٥) من كتاب « الحيوان » الجزء ٣ ص ٣٤٦ .

٥ ـ الجاحظ الضاحك المتهكم

التربيع والتـــدوير

كان أحمد بن عبد الوهاب مفرط القصر يدعى أنه مفرط الطول، وكان مربعاً ، جعد الأطراف، قصير الأصابع ، وهو فى ذلك يدعى السباطة والرشاقة، وأنه عتيق الوجه ، أخمص البطن ، معتدل القامة . وكان ادعاؤه لأصناف العلم على قدر جهله بها . فبرم منه الجاحظ وكتب إليه هذه الرسالة يسأله فيها مئة مسألة ، وأسلوبه فى ذلك أسلوب التهكم والاستهزاء .

أطَال الله بقاءكَ وأتمّ نعمتَه عليك وكرامتَه لك . قد علمتُ ، حفظكَ الله ، أنك لا تحسَد على شيء حسدكَ على حسن القامة، وضخم الهامة ، وعلى حَوَر العين[1] وجودة القدّ ، وعلى طيب الأحدوثة والصنيعة المشكورة . وأن هذه الأمور هى خصائصك التى بها تـكْلَفَ[2] ، ومعانيك التى بها تلهج . . . وبعد ، أبقاكَ الله فأنتَ فى يدكَ قياس لا ينكسر ، وجواب لا ينقطع ، ولك حدٌّ لا يُفلّ ، وغربٌ[3] لا ينثنى ، وهو قياسُك الذى إليه تُنسب ، ومذهبك الذى إليه تذهب ، أن تقول : وما علىّ إن رآنى الناسُ عريضاً وأكون فى حكمهم غليظاً ، وأنا عند الله طويل جميل ، وفى الحقيقة مقدود رشيق . وقد علموا ، أبقاكَ الله ، أن

---

(١) حور العين : اشتداد سواد سوادها فى اشتداد بياض بياضها واستدارة حدقتها ورقة جفونها .

(٢) كلف بالشيء : أولع به ولعاً شديداً .

(٣) الغرب : الحد .

لك مع طول البادّ[1] راكباً طول الظهر جالساً . ولكن بينهم فيك إذا قمتَ اختلاف ، وعليك لهم إذا اضطجعتَ مسائل ، ومن غريب ما أُعطيتَ وبديع ما أُوتيت أنّا لم نرَ مقدودًا واسع الجُفْرة[2] غيرك ، ولا رشيقاً مستفيض الخاصرة سواك ، فأنتَ المديد ، وأنت البسيط ، وأنت الطويل ، وأنت المتقارب . فيا شعرًا جمع الأعاريض[3] ، ويا شخصاً جمع الاستدارة والطول ! بل ما يهمُّك من أقاويلهم ويتعاظمك من اختلافهم ، والراسخون فى العلم والناطقون بالفهم يعلمون أنّ استفاضة عَرْضِك قد أدخلت الضيم على ارتفاع سَمْكك[4] ، وأن ما ذهب منك عرضاً قد استغرق ما ذهب منك طولًا . ولئن اختلفوا فى طولك لقد اتفقوا فى عَرْضك ، وإذ قد سلّموا لك بالرّغم شطراً ومنعوك بالظلم شطرًا ، فقد حصلت ما سلّموا وأنت على دعواك فيما لم يُسلِّموا . ولعمرى إن العيون لتُخطئ وإن الحواسّ لتكذب ، وما الحكم القاطع إلّا للذهن ، وما الاستبانة الصحيحة إلّا للعقل ، إذ كان زِمَاماً على الأعضاء وعيارًا على الحواسّ . . .

وبعد حديث طويل على هذا المنوال يوجه الجاحظ إلى خصمه أسئلته وإليك بعضاً منها :

خبّرنى عن معنى القُرات على حَقّه وصدقه ، وعن نضوب البحر وعن تنقُّص الأرض ، ولِمَ عمل الفَلَك فى هذا العالَم وليس بينهما شبه ،

---

(١) الباد : باطن الفخذ .

(٢) الجفرة : جوف الصدر ، أو ما يجمع الصدر والجنبين .

(٣) راجع الحاشية ١ فى صفحة ٢٨ .

(٤) السمك : الارتفاع .

وهلّا عمل فيــه بقدرة منه ، وهل يجوز أن يَعْمَل شيءٌ فى شىء إلّا والآخر يعمل فيه ؟ وخبّرنى مذ كم كان الناسُ أمّةً واحدةً ، ولغاتُهم متساوية ؟ وبعدكم بطن اسودّ الزنجىّ وابيض الصقلبىّ ؟ ولِمَ صار اللون أسرعَ تنقُّصًا من الجمود ؟ ولِمَ كان الولد يجىء على شبه ما فى أبيه من الأمور الحادثة فى بدنه عن غير القديمة فى أصل تركيبه ، ومع ذلك لم يولد صبىّ قطّ فى العرب مجنونًا . . .

جُعلت فداكَ أيّما أطول عمرًا الناس ، أم عَيْر العانة[1] ، أم الحيّة ، أم الضبّ ، ومتى تستغنى الحيّة عن الغذاء ، ومتى ينتفع الضبّ بالنسيم ؟ . . . وخبّرنى عن جواهر الأرض ، وعن جَمْع القار أشىء مفروغ من خلقه أم أرض يستحيل إليه ؟ ولِمَ عمل بعض السمّ فى العصب ، وبعضه فى الدم ، وبعضه فيهما جميعًا ؟ ولم كان بعضه سمّ نجاز وبعضه سمّ جهاز ؟ ولم صار لا يقتل مع العادة وقتل قبل العادة ، ألِأَنّ الطبائع تنكر الشىء الغريب أم لأنّه ضدٌّ فى نفسه ؟ وكيف صار مع ريق الأفعى ريق بعض الناس فى القتل ، وفى أيّهما سمّ ؟ . . .[2]

---

(١) العير : الحمار الوحشى . العانة : الأتان ، والقطيع من حمر الوحش .

(٢) من مجموعة رسائل الجاحظ — مصر ١٣٢٤ هـ .

١ — المراجع العربيّة

الجاحظ : كتاب الحيوان . طبع مصر .

الجاحظ : كتاب البخلاء . طبع دمشق ١٩٣٨

الجاحظ : كتاب البيان والتبيين . طبع مصر ١٩٢٧

الجاحظ : مجموعة رسائل . طبع مصر ١٩٤٣

ياقوت : معجم الأدباء . دار المأمون . ج١٦ ص٧٤—١١٤

ابن خلكان : وفيات الأعيان . ج ١ ص ٤٩٠

الشهرستانى : كتاب الملل والنحل ص٥٢ . ليبسك ١٩٢٣

ابن الأنبارى : طبقات الأمراء ص ٢٥٤

الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد . القاهرة ١٩٣١

فيليب حتى : تاريخ العرب . ج ٢ . بيروت ١٩٤٩

زهدى حسن جار الله : المعتزلة . القاهرة ١٩٤٧

جرجى زيدان : تاريخ التمدن الإسلامى . القاهرة ١٩٣١

جرجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية . ج٢ . القاهرة ١٩٣٠

أحمد فريد رفاعى : عصر المأمون. ج١ . ص٦٩—١٨٢ . القاهرة ١٩٢٧

حنا الفاخورى : تاريخ الأدب العربى . ص ٥٥٩ — ٥٩١ . حريصا ١٩٥١

محمد كرد على : أمراء البيان . ج ٢ ص ٣١١ — ٤٨٧ . القاهرة ١٩٣٧

أنيس المقدسى : تطور الأساليب النثرية . ص١٧٦—٢٠١ . بيروت

أحمد أمين : ضحى الإسلام . ج ١ ص ٤٠٨ — ٤٢٤ . القاهرة ١٩٣٨

أحمد أمين : ضحى الإسلام . ج ٣ ص ١٢٧ — ١٤١ . القاهرة ١٩٤١

شوقى ضيف : الفن ومذاهبه فى النثر العربى. ص ٥٨ — ٧٨ . القاهرة ١٩٤٦

طه حسين : من حديث الشعر والنثر . ص ٨٠ — ١٢٣. القاهرة ١٩٣٦

شفيق جبرى : الجاحظ معلم العقل والأدب . القاهرة ١٩٤٨

حسن السندوبى : أدب الجاحظ . القاهرة ١٩٣١

خليل مردم : الجاحظ . دمشق ١٩٣٠

محمد المبارك : فن القصص فى كتاب البخلاء للجاحظ . دمشق ١٩٤٠

محمد فهمى عبد اللطيف : دعابة الجاحظ. الرسالة ٥ (١٩٣٧) ص ٢٢٠، ٢٥٥ ، ٣٠٧ ، ٣٤٠ ، ٣٨٥ ، ٥٠٨ .

عبدالملك عبد اللطيف نورى : مع الجاحظ فى حياته وأدبه — الأديب ٥ ، عدد ١٢ : ٨ .

٢ — المراجع الأجنبية

Carra de Vaux : Les Penseurs de l'Islam, T. I.

Brockelmann : Histoire des Peuples et des Etats Islamiques-Paris 1949

Brockelmann : Gesch. d. Arab. Litterature, I, 152.

Brockelmann . : Al-Djahiz, in Encycl. de l'Islam, T. 1, 1028-1029.

فهرست

الفصل الأول
عصر الجاحظ

الفصل الثانى
الجاحظ فى عصره

الفصل الثالث
جوانب الجاحظ

الفصل الرابع

منتخبات من آثار الجاحظ

تم طبع هذا الكتاب على مطابع دار المعارف
فى شهر فبراير (شباط) سنة ١٩٥٣

مجمـــوعة

نوابغ الفكر العربى

مجموعة جديدة جامعة تقدم نوابغ الفكر العربى فى جميع العصور ، كما يصورهم ويترجمهم نوابغ الفكر العربى فى العصر الحاضر من كل قطر وبلد فهى تعنى بالشعراء والكتاب كما تعنى بالفلاسفة والحكماء ، وتتناول أعلام اللغة كما تتناول أعلام التاريخ . وقد رأت دار المعارف أن تعهد فى كل بحث من هذه البحوث إلى المختصين به وذوى الخبرة والدراية فيه فيجولوا فيه ويتبعوه بباب واف للمختار من روائع المترجم له مفسر المعانى مبين الأغراض ملحوظاً فى اقتباسه أن يعزز الترجمة والنقد بالشواهد والأمثال .

فالمجموعة بهذه المثابة دائرة معارف كاملة تنقل الأدب الحى كما أوحت به قرائح الأدباء . وإنها لذخيرة حديثة تضاف إلى ذخائر الأقدمين ، وليس قصاراها أنها تعريف بها وحكاية عنها ، فهى تحية العصر الحاضر للعصور الماضية ، وهديته إلى العصور المقبلة ، يرجى أن يحمدها له عشاق الضاد ، كلما جرى بها قلم أو هتف بها لسان .

• ظهر منها

١ — ابن رشد	بقلم عباس محمود العقاد
٢ — الجاحظ	بقلم حنا الفاخورى
٣ — الشيخ نجيب الحداد	بقلم عادل الغضبان

• يظهر قريباً

٤ — محمود سامى البارودى	بقلم عمر الدسوقى
٥ — ابن زيدون	بقلم شوقى ضيف
٦ — الشيخ ناصيف اليازجى	بقلم عيسى ميخائيل سابا

• تحت الطبع

عدد وافر من كتب هذه المجموعة لجمهرة من نوابغ الفكر القدامى والمحدثين

ثمن النسخة ١٢٥ مليماً


0656670